المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

تناوب حروف الجر بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية (دراسة تطبيقية نقدية على حرف (الباء) في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

Th Alternation of Prepositions between Grammatical Workmanship and Rhetorical Semantics (A Critical Applied Study on the Letter B in the Interpretation of the Surrounding Sea by Abu Hayyan Al-Andalusi.

بقلم الدكتور

محمد شاكر محمد صهوان

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر- جمهورية مصر العربية.

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار سبتمبر ٢٠٢٥م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

تناوب حروف الجر بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية (دراسة تطبيقية نقدية على حرف (الباء) في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

محمد شاكر محمد صهوان.

قسم البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني : mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

الملخص

يُسلط هذا البحث الضوء على ظاهرة تناوب حروف الجر في اللغة العربية، التي تُعد من الظواهر اللغوية التي أثارت جدلاً واسعًا بين علماء اللغة، ويركز البحث بشكل خاص على حرف الجر "الباء"، متخذاً من كتاب "البحر المحيط" لأبي حيان الأندلسي نموذجاً تطبيقياً ونقدياً لدراسة هذه الظاهرة، و تتمحور مشكلة البحث حول ملاحظة أن بعض المفسرين يميلون إلى القول بتناوب حروف الجر، بمعنى أن حرفاً ما قد يحمل معنى حرف آخر في سياقات معينة، دون التدقيق في الدلالة الأصلية للحرف، وهذا يثير تساؤلا: لماذا يستخدم النظم القرآني حرفًا معينًا، بينما يستدعي السياق معنى حرف آخر؟

ويتناول هذا البحث بشكل خاص تناوب حرف "الباء"، مستعرضاً آراء أبي حيان في تفسيره "البحر المحيط" حيث ذهب إلى أن "الباء" تحمل معاني حروف أخرى، وينطلق البحث من هنا ليطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية حول منهج أبي حيان في معالجة حرف "الباء"، ودوره في الفصل أو الربط بين الدلالة النحوية والبلاغية، وتأثير السياق على قبول التناوب أو رفضه، ومدى تأثير هذا التناوب على فهم المعنى والسياق القرآني.

وتبرز أهمية البحث في محاولة تسعى إلى تعزيز المنهج العلمي في الدراسات التفسيرية والنحوية، ويدعو البحث إلى عدم الاكتفاء بالآراء غير المعللة، بل يُحفّز على التدقيق والتمحيص فيها بناءً على أسس بلاغية ولغوية رصينة؛ لتقديم الفهم الأدق والأصوب الذي يتفق مع السياق القرآني والأسلوب

البلاغي المعجز، وذلك عن طريق

• تتبع مواضع حرف "الباء" في "البحر المحيط" التي صرح فيها أبو حيان بتناوبه.

• تحليل هذه الشواهد تحليلاً بلاغياً نقدياً مع مراعاة أثر السياق.

• الكشف عن مدى تأثير القول بتناوب الحروف أو بأصالتها على المعنى والسياق البلاغي.

• فحص آراء أبي حيان حول تناوب "الباء" وما إذا كانت ترتكز على أسس لغوية وبلاغية، أو أن هناك سبلًا أخرى لفهم المعنى دون اللجوء إلى التناوب.

وقد اعتمدت الدراسة في معالجتها لتلك القضية على المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي:

• المنهج الاستقرائي: من خلال استقراء الشواهد التي ذكر فيها أبو حيان تناوب حرف "الباء".

• المنهج الوصفي: لتحديد موطن الشاهد وتوصيف الظاهرة من خلال ذكر رأي أبي حيان.

• المنهج التحليلي: لتحليل الشواهد بلاغياً ونقدياً، وبيان مدى انسجام المعنى المستفاد من "الباء" (سواء بالمعنى الأصلي أو بالتناوب) مع سياق الآية الكلي، ومع بلاغة القرآن الكريم وإعجازه البياني.

الكلمات المفتاحية: تناوب ، حروف الجر ، الصنعة النحوية ، الدلالات البلاغية، البحر المحيط.

Th Alternation of Prepositions between Grammatical Workmanship and Rhetorical Semantics (A Critical Applied Study on the Letter B in the Interpretation of the Surrounding Sea by Abu Hayyan Al-Andalusi.

Muhammad Shaker Muhammad Sahwan.

Department of Linguistics, Faculty of Arabic Language, Itay al-Baroud, Al-Azhar University, Itay al-Baroud, Arab Republic of Egypt.
Email: mohamedsahwan.419@azhar.edu.eg

Abstract

This research sheds light on the phenomenon of the alternation of prepositions in the Arabic language, which is one of the linguistic phenomena that has sparked a wide debate among linguists, and the research focuses in particular on the preposition "B", taking the book "The Ocean Sea" by Abu Hayyan al-Andalusi as an applied and critical model to study this phenomenon, and the problem of the research is centered on observing that some commentators tend to say that the alternation of prepositions is that one letter may carry the meaning of another letter in contexts without scrutinizing the original significance of the letter, andthis raises a question: why do the Qur'anic systems use a certain letter, while the context calls for the meaning of another letter?

This research deals with the rotation of the letter "B", reviewing Abu Hayyan's views in his interpretation of "The Ocean Sea", where he argued that "Al-Ba" carries the meanings of other letters, and the research starts from here to raise a set of sub-questions about Abu Hayyan's approach to treating the letter "Al-Ba", his role in separating or linking the grammatical and rhetorical significance, the impact of context on the acceptance or rejection of the rotation, and the extent to which this rotation affects the understanding of the meaning and the Qur'anic context.

The importance of the research is highlighted in an attemptto strengthen the scientific method in interpretive and grammatical studies, and the research calls for not sufficing with unreasoned opinions, but stimulates scrutiny and scrutiny of them based on solid rhetorical and linguistic foundations, to provide the most accurate and correct understanding that is consistent with the Qur'anic context and the miraculous rhetorical style.

• Follow the positions of the letter "B" in the "Surrounding Sea" in which Abu Hayyan stated that he alternated.

• Analyzing these evidences rhetorically and critically, taking into account the impact of the context.

• Revealing the extent to which saying the alternation of letters or their originality affects the meaning and rhetorical context.

• Examine Abu Hayyan's views on the alternation of "al-ba" and whether they are based on linguistic and rhetorical foundations, or whether there are other ways to understand meaning without resorting to alternation.

In its treatment of this issue, the study relied on the inductive, descriptive, and analytical approach:

• Inductive Method: By extrapolating the evidence in which Abu Hayyan mentioned the rotation of the letter "B".

• Descriptive Method: To determine the place of the witness and to describe the phenomenon by mentioning the opinion of Abu Hayyan.

• Analytical Method: To analyze the evidence rhetorically and critically, and to show the extent to which the meaning of "Al-Ba" (whether in the original sense or alternately) is consistent with the overall context of the verse, and with the eloquence and miracle of the Holy Qur'an.

Keywords: Rotation - Prepositions - Grammatical workmanship - Rhetorical semantics - EL- bahr_ELmohit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فجعله هدايةً ونورًا، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن حروف الجر في اللغة العربية تُعد من الأدوات اللغوية والركائز الأساسية التي لا غنى عنها، حيث إن وظيفتها لا تقف عند حد الربط بين الكلمات فحسب، بل تتعدى ذلك لتُسهم إسهامًا فاعلاً في بناء المعنى وتشكيل الدلالات و تحديد العلاقات بين الألفاظ وأجزاء الجملة و الكشف عن مقاصد المتكلم، وعلى الرغم من صغر مبناها فإنها تعد مفاتيح لغوية تفتح آفاقًا واسعة لفهم النصوص، وتُكسب التراكيب عمقًا ودقة، وتُضفي على النص جمالاً ورونقًا؛ ولهذا كانت هذه الحروف محط اهتمام النحويين والبلاغيين على حد سواء، لما تحمله في طياتها من دلالات عميقة واسعة ووظائف متعددة تتجاوز مجرد الربط النحوي لتصل إلى مستويات بلاغية وبيانية رفيعة، ومن الظواهر اللغوية التي أثارت جدلاً واسعًا بين علماء العربية ظاهرة "تناوب حروف الجر، ودراسة هذه الظاهرة من خلال النصوص ذات القيمة الدلالية العالية كالقرآن الكريم وكتب التفسير، تشكل مفتاحًا لفهم أسرار اللغة وجماليات التعبير، وفهم المعاني العميقة وإدراك الإعجاز البياني، ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على تلك الظاهرة متخذًا من حرف (الباء) نموذجًا تطبيقيًا من خلال تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، وسيعمل هذا البحث على تحليل الشواهد التي صرح فيها أبو حيان بتناوب حرف (الباء) مع غيره من حروف الجر، مستكشفًا الأبعاد البلاغية والدلالية لهذه الشواهد في سياقاتها القرآنية؛ لتقديم دراسة تطبيقية نقدية ترصد مظاهر هذا التناوب، وتكشف عن أبعاده البلاغية، وتُقيّم مدى انسجام القول بالتناوب مع السياق القرآني، ومن هنا كانت هذه الدراسة بعنوان :

(تناوب حروف الجر بين الصنعة النحوية، والدلالات البلاغية، دراسة تطبيقية نقدية على حرف (الباء) في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.)

مشكلة البحث:

من المعلوم أن كل حرف من حروف الجر يؤدي معنى خاصا به لكن من يطالع آراء المفسرين عند حديثهم عن حروف الجر في سياق تفسيرهم آيات الذكر الحكيم يجد أن منهم من يقف مع الحرف في سياقات تشي ظاهرها بأن الحرف يحمل معنى حرف آخر فيميل المفسر إلى القول بأن هذا الحرف في هذا السياق يحمل معنى حرف آخر ويحل محله في أداء معناه دون أن يدقق النظر في الدلالة الأصلية للحرف، وهذه الظاهرة تعرف (بتناوب حروف الجر) لكن يظل في النفس سؤال، وهو إذا ما سلمنا بهذه الأقوال فلماذا عبر النظم بحرف وجعل السياق يستدعي فيه معنى حرف آخر؟

ومن هذه الحروف التي قال المفسرون بأنها تأتي في النظم وتحمل معنى حرف آخر حرف (الباء) وممن قال بتناوب هذا الحرف أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، حيث ذهب في مواضع متعددة إلى أن (الباء) إنما تحمل معاني حروف أخرى دون أن يجعل معناها قائما على الدلالة الأصلية لها، وكان يشيد تفسيره للشواهد على هذا النحو، وهو ما يثير تساؤلات حول الأسباب الكامنة وراء القول بالتناوب دون العزو إلى المعنى الأصلي للحرف، وما إذا كان ذلك يرجع إلى الصنعة النحوية فحسب، أم أن له أبعادًا بلاغية ودلالية أعمق؟، وهل القول بالتناوب يتسق ومقصد النظم؟ ويتفرع عن هذا عدة أسئلة ،هي:

١- ما المنهج الذي اتبعه أبو حيان في بيان معنى حرف الجر "الباء" في "البحر المحيط؟

٢- ما منهجه في الفصل أو الربط بين الدلالة النحوية والدلالة البلاغية؟ وهل كان يميل إلى التناوب أو القول بالدلالة الأصلية للحرف؟

٣- ما دور السياق في قبول القول بالتناوب أو رفضه؟

٤- إلى أي مدى يبرر أبو حيان الأندلسي تناوب حرف الجر "الباء" في تفسيره، وهل يميل إلى التعليل النحوي أو البلاغي أو كليهما؟

٥- ما أبرز الملاحظات النقدية حول معالجة أبي حيان لتناوب حرف الجر "الباء" في تفسيره من حيث الشمولية والعمق والمنهجية؟

٦- كيف عالج أبو حيان الأندلسي دلالة حرف الجر "الباء" في تلك المواضع، وهل يغفل معناها الأصلي (الإلصاق) كليًا أو يرى فيه وجوهًا أخرى؟

٧- ما الضوابط التي وضعها أبو حيان لجواز التناوب أو رفضه، وكيف أثرت على تفسيره للآيات؟

٨- ما الحجج البلاغية التي يمكن الاستناد إليها لتفنيد أو تأييد قول أبي حيان بالتناوب في شواهد محددة من تفسيره؟

٩- كيف اختلف الفهم البلاغي للدلالة الأصلية لحرف "الباء" (الإلصاق) عن دلالته عند القول بتناوبه في الشواهد التي أشار إليها أبو حيان؟

١٠- هل المواضع التي صرح فيها أبو حيان بتناوب (الباء) استطاعت (الباء) أن تحل محل بعض حروف الجر دون فقد الدقة الأصلية في المعنى، أو ظل لكل حرف خصوصيته ودلالته المستقلة التي يصعب استبدالها دون إحداث تغير دلالي واضح؟

١١- ما مدى تأثير القول بتناوب حرف "الباء" على فهم المعنى والسياق القرآني، وتوخي أغراض النظم في الشواهد التي استعرضها أبو حيان، وهل يحقق إبقاء (الباء) على أصلها دلالة أعمق أو أوضح؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في أنه يُسهم في تصحيح وتدقيق الفهم التفسيري للآيات القرآنية، و يُعزز المنهج العلمي في الدراسات التفسيرية والنحوية، فهو يدعو إلى عدم الاكتفاء بالآراء غير المعللة، بل يُحفّز على التدقيق والتمحيص فيها بناءً على أسس بلاغية ولغوية رصينة، فعندما يتبنى بعض المفسرين قولًا بالتناوب أو غيره دون سند بلاغي أو لغوي متين، فقد يؤدي ذلك إلى فهم مغلوط أو قاصر

للآية، وهنا يأتي دور البلاغة لتُقدم المعيار الذي يُقاس عليه مدى صحة هذه الأقوال، وتقدم أدلة قاطعة على الرأي الراجح، وتُشير إلى المعنى الأدق والأصوب الذي يتفق والسياقَ القرآني والأسلوب البلاغي المعجز، وعليه فإن هذه الدراسة تُرسخ مبدأ التقيّد بالضوابط اللغوية والبلاغية عند تفسير القرآن، مما يُبعد التفسير عن التأويلات المتكلفة أو الشخصية.

ثالثا: أهداف البحث

يهدف البحث إلى:

١- الوقوف على مسالك أبي حيان في بيان معنى حرف الجر "الباء" في "البحر المحيط، والكشف عن منهجه الذي اتبعه في الربط أو الفصل بين الدلالة النحوية والبلاغية.

٢- تتبع مواضع حرف الجر (الباء) في تفسير "البحر المحيط" لأبي حيان الأندلسي، التي صرح فيها بأن حرف (الباء) إنما أتى بمعنى حرف آخر.

٣- تحليل هذه الشواهد تحليلا بلاغيا نقديا مراعيا أثر السياق في إيضاح معنى حرف الجر (الباء)؛ للوصول إلى الفهم الأمثل للدلالات المتعددة لحرف "الباء" وتمييز ما إذا كانت هذه الدلالات نابعة من المعنى الأصلي للحرف، أم أنها تعود إلى تناوبه مع حروف جر أخرى.

٤- يكشف البحث عن مدى تأثير القول بتناوب الحروف أو بأصالتها على المعنى والسياق البلاغي.

٥- فحص دقيق وموضوعي لآراء أبي حيان، حول فكرة تناوب حرف الجر (الباء) وهل هذه الفكرة ترتكز على أسس لغوية وبلاغية، أم أن هناك سبلًا أخرى لفهم المعنى دون اللجوء إلى التناوب، مثل سعة المعنى الأصلي للحرف؟ مما يسهم في ضبط المنهجيات المستخدمة في تفسير النص القرآني.

منهجية البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي :

- المنهج الاستقرائي:
  - استقراء الشواهد التي ذكر أبو حيان في تفسيره أن (الباء) فيها تنوب عن غيرها من حروف الجر.
- المنهج الوصفي:
  - تحديد موطن الشاهد
  - توصيف الظاهرة من خلال ذكر رأي أبي حيان في معنى (الباء).
- المنهج التحليلي:

يتم تحليل الشواهد المستخلصة من تفسير "البحر المحيط من منظور بلاغي لبيان مدى انسجام المعنى المستفاد من "الباء" (سواء بالمعنى الأصلي أو بالتناوب) مع سياق الآية الكلي، ومع بلاغة القرآن الكريم وإعجازه البياني. هل يؤدي القول بالتناوب إلى إضافة بلاغية أو معنى أعمق، أم أنه يؤدي إلى تكلف وتضييع لدقة المعنى الأصيل؟

عينة الدراسة:

اعتمد البحث على الآراء التي ذكرها أبو حيان في تفسيره البحر المحيط عن تناوب حرف الجر (الباء).

الدراسات السابقة:

لم أقف – فيما أعلم– على دراسة بلاغية متخصصة تناولت قضية تناوب حروف الجر في تفسير البحر المحيط وما وقفت عليه من دراسات كان أغلبها دراسات حول نيابة حروف الجر بشكل عام في القرآن الكريم منها:

- أثر نيابة حروف الجر بعضها عن بعض في معاني القرآن الكريم، من أول سورة الأحزاب إلى نهاية سورة غافر (دراسة تحليلية) رسالة دكتوراة في التفسير لعلي بن علي صالح الغزي، وهذه الدراسة تختص بالجوانب التفسيرية من خلال سور محددة ولا علاقة لها بالبلاغة.

●تناوب حروف الجر في لغة القرآن: المؤلف: محمد حسن عواد – الجامعة الأرنية كلية الآداب – دار الفرقان للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٩٠٠م.

●أثر نيابة الحروف بعضها عن بعض في معاني القرآن الكريم (دراسة تحليلية في سورة البقرة رسالة دكتوراه مقدمة في جامعة القرآن والعلوم الإسلامية بجمهورية السودان من الباحث: صلاح علي يوسف مصطفى.

●بين جدلية التناوب والتضمين مثل من السياق القرآني لحرف الجر "في"، لأبي صعيليك، حامد علي، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية جامعة الأزهر – ، العدد ٢٧، ٢٠١١م، و تعنى هذه الدراسة بتتبع أثر السياق في إيضاح معنى حرف الجر (في) في بعض سياقاته في النص القرآني.

●حروف الجر معانيها وأثر نيابة بعضها عن بعض في التفسير من خلال سورة آل عمران: دراسة تحليلية، البعداني عادل أحمد محسن، أم درمان ٢٠١٨م.

●تناوب حروف الجر وأثره في الإعجاز القرآني، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، عبد الله، هىوا عثمان، ٢٠٢١م، يعرض لنماذج من تناوب حروف الجر عن بعضها في القرآن الكريم.

●حروف الجر بين التناوب والتضمين في البحر المحيط لأبي حيان، عائشة بنت علي المقبل، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية العدد ٣٦، ٢٠٢٠م، وهي دراسة لغوية توضح آراء أبي حيان بين التضمين والتناوب، دون التعرض لأي أوجه بلاغية.

●مسألة تناوب حروف الجر، مجلة آداب، جامعة الخرطوم – كلية الآداب، محمد محي الدين محمد جبريل ٢٠٢١م، تناولت هذه الدراسة مسألة تناوب حروف الجر، وهدفت إلى الوقوف على هذه القضية وأقوال النحاة فيها مع عرض أمثلة لها من الكلام الفصيح.

●التناوب بين حروف الجر في الدلالة على معنى المجاوزة في القرآن الكريم، عائشة بنت مرزوق بن حامد، مجلة التجديد العدد الحادي والخمسون، الجامعة الإسلامية العالمية ٢٠٢٢، فهذه الدراسة تهدف إلى الوقوف على قضية تناوب حروف الجر في الدلالة على معنى المجاوزة خاصة، وتطبيق التناوب على بعض ما ورد منها في القرآن الكريم؛ بغية الوصول إلى القيمة الدلالية والإعجازية لذلك التناوب.

●حروف الجر بين التناوب والتضمين دراسة تطبيقية على آيات من القرآن الكريم: دراسة وصفية تحليلية، مجلة التربوي، جامعة المرقب – كلية التربية بالخمس، الصابري، عبد الرحمن بشىر، ٢٠٢٣م، فهذا بحث تناول موضوع " التناوب والتضمين " بين حروف الجر من حيث التعريف اللغوي والاصطلاحي، ومن حيث أقسامها وعددها ومعانيها الأصلية.

وعلى الرغم من كل هذه الدراسات، فإن هذه الدراسة تختلف عن هذه الدراسات السابقة بأنها تتناول حرف (الباء) تحديدًا في تفسير "البحر المحيط" لأبي حيان، مع اعتماد منهج نقدي تطبيقي يجمع بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية لآراء أبي حيان التي صرح فيها بالتناوب، للوقوف على مدى تأثر القول بالتناوب على بلاغة النص.

خطة البحث: انتظم البحث في:

مقدمة، اشتملت على أهمية البحث، ومنهجه، وحدوده، وأهدافه، والدراسات السابقة.

وتلاها:

– التمهيد وفيه:

أولا: اختلاف النحويين في تناوب حروف الجر.

ثانيا: موقف الإمام أبي حيان من القول بالتناوب

ثالثا: معاني الباء

رابعا: منهج الإمام أبي حيان في حديثه عن حرف (الباء) في البحر المحيط.

خامسا: دور علم البلاغة في قبول القول بالتناوب أو رفضه

وأتى بعد التمهيد:

- المسائل التي انتظمت فيها شواهد القول بتناوب (الباء) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية وقد أتت على النحو الآتي:

- نيابة (الباء) عن (في) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية، وفيها خمسة عشر شاهدا.

- نيابة (الباء) عن (من) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية، وفيها: شاهدان.

- نيابة (الباء) عن (إلى) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية، وفيها: شاهدان.

- نيابة (الباء) عن (على) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية، وفيها ثلاثة شواهد.

- نيابة (الباء) عن (اللام) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية وفيها شاهد واحد.

- نيابة (الباء) عن (عن) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية، وفيها أربعة شواهد.

الخاتمة واشتملت على أهم نتائج البحث وتوصياته.

فهرس المصادر والمراجع

التمهيـــد

أولا: اختلاف النحويين في تناوب حروف الجر.

اختلف النحويون في مسألة تناوب حروف الجر عن بعضها، فذهب جمهور البصريين إلى منع تناوب حروف الجر، وأجازه جمهور الكـوفيين علـى النحـو التالي:

مذهب جمهور البصريين:

ذهب جمهور البصريين إلى أن كل حرف جر يدل على معنى واحد فقط وأن أدوات الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس، فحرف (الباء) لا يـدل عنـدهم إلا على (الإلصاق)، و(في) لا تدل إلا على (الظرفيـة)، و(علـى) لا تـدل إلا علـى (الاستعلاء)، فهم يبقون الحرف على معناه الذي عهد فيه، وما أوهم خلاف ذلـك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ، وَإِمَّا على تضمين الْفِعْل معنى فعل يتَعَدَّى بذلك الْحَرْف؛ لأن التجوز في الفعل أسهل منه في الحرف ويرون أن التصرف في الأفعال بالتضمين أولى من التصرف في الحروف بجعل بعضها موضع بعض، لأن الحروف بابها أن لا يتصرف فيها" [(١)].

مذهب جمهور الكوفيين:

ذهب معظم الكوفيين إلى جواز وقوع أدوات الجر بعضـها موقـع بعـض قياسا؛ لأنهم يرون التوسع في معاني أدوات الجر بحيث لا يقتصر الحرف علـى معنى واحد، بل له أكثر من معنى يؤديه تأدية حقيقية لا مجازية، فتراهم يحملون معنى الحرف على ما يعطيه الظاهر من وضع الحرف موضع غيره [(٢)].

---

(١) يراجع ضرائر الشِّعْر، لابن عصفور (المتوفى: ٦٦٩هـ):٢٣٦ تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠م، و مغني اللبيب عن كتب الأعاريـب، لابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ): ١٥١ و ٨٦١، تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م، و حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك، المؤلف: أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (المتوفى: ١٢٠٦هـ): ٢/ ٣١٢، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ –١٩٩٧م

(٢) ضرائر الشِّعْر، لابن عصفور:٢٣٦، و حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالـك: ٢/ ٣١٢.

ومن العلماء من توسط بين المنع والقبول كابن جني حيث عقد بابا سماه: باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض: وقال فيه وهذا باب يتلقاه النـــاس مغسولًا ساذجًا من الصنعة وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونـــه، وذلـــك أنهـــم يقولون: إن "إلى " تكون بمعنى مع... ويقولون إن: "في " تكون بمعنى "علـــى"... ويقولون: تكون الباء بمعنى عن وعلى ...غير ذلك مما يوردونه، ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضـــع علـــى حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كل موضع وعلى كـــل حـــال فلا"[(١)].

ثانيا: موقف الإمام أبي حيان من القول بالتناوب

من يراجع آراء أبي حيان في سياق حديثه عن حروف الجر يجـــد أنـــه لا يرفض القول بتناوب حروف الجر حيث ذهب إلى أن هناك بعض الحروف تـــأتي لتدل على معاني حروف أخرى مثل قوله:" والصحيح أن (من) في نحو: أخذته من ذلك المكان، للمجاوزة"[(٢)]،... وقوله (والباء) في: بربوة، ظرفية،... وقوله: ولـــو تأول اللام بمعنى إلى، لم يكن ذلك خطأ، لأن اللام قد جاءت بمعنى إلى، وإلى قـــد جاءت بمعنى اللام[(٣)]، لكنه لا يقول بذلك على الإطلاق، بل تجده يقـــدم التضـــمين أحيانا على التناوب ومن ذلك قوله:" قال المصنف في الشرح: "وقد جـــاء (مـــن) بمعنى (على) في قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ سورة الأنبياء من الآية: ٧٧ ، كذا قال أبو الحسن الأخفش" انتهى. والأحسن ألا يضمن الحرف معنى الحرف، ويضمن الفعل معنى الفعل، فتكون من على بابها، ويكـــون

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (المتوفى: ٣٩٢هـــ): ٢/ ٣١٠، الهيئة المصـــرية العامـــة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

(٢) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، (المتوفى: ٧٤٥ هـــ): ١١/ ١٢٧، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا، الطبعة: الأولى.

(٣) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـــ) :٦٦٧/٢، و ٥٥٠/٨، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـــ

التقدير: ومنعناه بالنصر من القوم الذين كذبوا بآياتنا ويضمن الفعل"[١]، وتراه يرد كلام بعض النحاة بالتناوب فيقول: "وزعم بعض النحويين أن (من) تكون بمعنى (في)، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ سورة الأحقاف من الآية (٤)، أي: في الأرض، وزعم أبو عبيدة أنها تقع بمعنى عند، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ سورة آل عمران من الآية (١١٦)، ولا حجة في شيء من ذلك؛ إذ يحتمل التأويل[٢]، وتراه يضعف القول بالتناوب أحيانا، فيقول: "قيل: (إلى) بمعنى (الباء)، لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، وهذا ضعيف، إذ نيابة الحرف عن الحرف لا يقول بها سيبويه، والخليل، وتقرير هذا في النحو"[٣]، وهذا يدل على أنه سلك مذهب من توسط بين القبول والرفض.

ثالثا: معاني الباء

المعنى الأصلي (للباء) هو الالصاق، وهذا المعنى لا يفارقها، وهو أصل معانيها، وقد اقتصر عليه سيبويه، حيث يقول: " وباء الجر إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك: خرجت بزيدٍ، ودخلت به، وضربته بالسوط: ألزقت ضربك إياه بالسوط. فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله"[٤]، وذكر بعض النحاة لها معاني متعددة بلغت أربعة عشر معنى [٥].

رأي أبي حيان في معاني (الباء): ذكر أبو حيان في ارتشاف الضرب آراء العلماء في معنى (الباء) مصدرا كلامه برأي سيبويه قائلا: ولم يذكر لها سيبويه

(١) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل: ١١/ ١٣٢.

(٢) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل: ١١/ ١٣٤.

(٣) البحر المحيط: ١/ ١١٣.

(٤) الكتاب، لسيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ): ٤: ٢١٧، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

(٥) الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين المرادي المصري (المتوفى: ٧٤٩هـ):٣٦ تحقيق د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٣٧،

معنى غير الإلصاق، ثم أخذ في سرد المعاني التي قالها النحويون مناقشا إياها بالقبول تارة، وبالرد تارة، وأحيانا يكتفي بذكر الرأي دون تعليق(١)، وصرح في البحر المحيط بأن (للباء) أربعة عشر معنى فيقول: " باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والسبب، والحال، والظرفية، والسبب، والقسم، وتأتي زائدة للتوكيد، والبدل، والمقابلة، والمجاوزة، والاستعلاء...، ويقول: "والباء في بنورهم للتعدية، وهي إحدى المعاني الأربعة عشر التي تقدم أن (الباء) تجيء لها"(٢)؛ وبهذا فإنه يميل إلى أن لـ(لباء) معانيَ متعددة.

رابعا: منهج الإمام أبي حيان في حديثه عن حرف (الباء) في البحر المحيط.

من يتتبع آراء الإمام أبي حيان في تفسيره يجد أنه عندما يقف مع آية بها حرف (الباء) فإنه لا يحذوا حذوا ثابتا ولا يتبنى اتجاها واحدا وإنما تجد له رؤى مختلفة حسب مقتضيات السياق وذلك على النحو الآتي:

تارة يقول بالمعنى الأصلي (للباء) وذلك مثل قوله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ سورة البقرة من الآية: ٤٢، يقول: "وظاهر هذا التركيب أن (الباء) في قوله بالباطل للإلصاق، كقولك: خلطت الماء باللبن، فكأنهم نهوا عن أن يخلطوا الحق بالباطل"(٣)، ومنه قوله عن الباء في (بشيء) في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ سورة البقرة من الآية:١٥٥، والباء فيه للإلصاق(٤).

وأحيانا يجمع بين المعنى الأصلي والتناوب فيجعل (الباء) محتملة للإلصاق ومعنى آخر، ومن ذلك قوله: و(الباء) في: (به)، للإلصاق، ويجوز أن تكون

(١) ينظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ):٤/١٦٩٥: ١٧٠٥، تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

(٢) البحر المحيط: ١/ ٢٧، ١٣٠

(٣) السابق: ١/٢٩٠.

(٤) السابق: ٢/٥٤.

ظرفية[١]، وذلك عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ سورة البقرة من الآية: ١٩٦، ومنه قوله: "و(الباء) في: بقنطار، وفي: بدينار قيل: للإلصاق. وقيل: بمعنى (على)، إذ الأصل أن تتعدى بـ(على)"[٢].

وتارة يرد التناوب ويقول بالتضمين ومن ذلك قوله: "وقد يكون ضمَّن أحسن معنى لطف، فعداه بالباء"[٣]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ سورة يوسف من الآية: ١٠٠، ومنه قوله:" وكأنه تضمن أحسن معنى لطف، فعدي بالباء"[٤]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ سورة الإسراء من الآية:٢٣.

وأحيانا يصرح بالتناوب فيجعل (الباء) تحمل معنى حرف آخر، وهذه الآراء هي الشواهد التي سيتناولها البحث بالدراسة.

خامسا: دور البلاغة في قبول القول بالتناوب أو رفضه

من المعلوم أن علم البلاغة يُعنى بتحقيق مطابقة الكلام مقتضى الحال، أي أن يكون التعبير مناسبًا للسياق الذي يرد فيه من حيث الأسلوب والمعنى، وعند الوقوف على معاني حروف الجر في سياقاتها، ينطلق علم البلاغة من مبدأ أساسي وهو "الوقوف على دلالات الظواهر التي توجد في بناء التراكيب التي يوجد بها الحرف حتى يستنطق السياق ويوقف مع مقاصد الآيات؛ للكشف عن أثر تلك الظواهر في بناء الدلالات ومجيء المعاني على الوجه المراد"[٥]، ومن ثم يقف مع جميع الدلالات والمعاني المحتملة التي قد يحملها الحرف الواحد، ثم

---

(١) البحر المحيط: ٢/٢٦١.

(٢) السابق: ٣/٢٢٢.

(٣) السابق: ٦/٣٢٨.

(٤) السابق: ٧/ ٣٤.

(٥) الفاصلة القرآنية بين إعجاز النظم وادعاء الرعاية تفسير التحرير والتنوير نموذجا، محمد شاكر صهوان، ص١٦١٨، *مجلة* كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، المجلد ٣٤، العدد ٣، أكتوبر ٢٠٢١م بتصرف

يوازن بينها لاختيار الأنسب للسياق والأغزر في العطاء البلاغي، فإذا كان المعنى الأصلي للحرف هو الذي يحقق الدلالة المطلوبة في السياق دون لبس في الفهم، ويرفد الكلام بالمعنى المراد دون تعقيد أو إبهام، ويؤدي الدلالة المطلوبة ويحقق الغرض الذي يريده المتكلم بدقة ووضوح، فإن البلاغة ترجح القول بالمعنى الأصلي للحرف وعدم القول بالتناوب، أما إذا تبيّن من خلال التحليل البلاغي أن القول بالتناوب يُكسب الكلام دلالات أعمق أو معاني إضافية توافق مقتضى الحال وتزيد من بيان العبارة وجمال الأسلوب، وتتناسب بشكل أفضل مع السياق، و تبرز جوانب دلالية لا يمكن تحقيقها بالمعنى الأصلي للحرف بنفس القوة والدقة، فإن البلاغة عندئذٍ تُرجح القول بجواز التناوب، إذن فالبلاغيون لا يحكمون على صحة التناوب أو رفضه حكماً مطلقاً، بل يجعلون الفيصل في ذلك والمعيار في القبول أو الرفض هو تحقيق المطابقة وجمال الدلالة، ومدى ملاءمة الحرف لمعنى السياق، وما يحققه من مطابقة للحال وبلاغة في الدلالة، معتبرين كل موضع بحسبه ومستندين في ذلك إلى استقراء النصوص الفصيحة من خلال منهج محكم .

المسائل التي انتظمت فيها شواهد القول بتناوب (الباء) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية

****

نيابة (الباء) عن (في) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول:

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ سورة البقرة، من الآية: (٢٦٥)

موطن الشاهد: الباء في ﴿بِرَبْوَةٍ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

ذهب الإمام أبو حيان إلى أن (الباء) في ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ تنوب عن حرف الجر (في) فيقول: "وَالْبَاءُ فِي: بِرَبْوَةٍ، ظَرْفِيَّةٌ"[١] فهو هنا اكتفى في توجيهه بالصناعة النحوية دون أن يتلمس الدلالات البلاغية في التعبير بـ(الباء) دون (في) على ما ذهب إليه.

التوجيه البلاغي:

من المقطوع به أن النظم الحكيم عبر بـ(الباء) في ﴿بِرَبْوَةٍ﴾؛ لدلالات اقتضاها المعنى بحيث لا يمكن أن يكتمل المراد بدونها، وهذه الدلالات تحتاج إلى استقراء للسياق وما يتضمنه من تعبيرات، ومن يتأمل النظم الحكيم يجد أن الآية أتت في سياق المقارنة بين أحوال الناس في إخراج الصدقات فهم ما بين مراء يبتغي ثناء الناس مبطل لصدقاته بالمن والأذى، وما بين مخلص يطلب مرضاة الله ويوطن نفسه على الثبات في الإخلاص، وقد بنى النظم هذا المعنى في صورة تشبيهية تبرز عظمة الأجر المضاعف للمنفقين ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا لأنفسهم، وقد أتت (الباء) في المشبه به، ولمعرفة دلالات (الباء) هنا فإنه يجب الوقوف على مقاصد النظم في المشبه للكشف عن الدلالات التركيبية فيما يقابله في

(١) البحر المحيط :٢/ ٦٦٧.

المشبه به، والمشبه هنا هو قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ وقد عبر النظم هنا عن تلك الفئة الصالحة بالاسم الموصول الذي أفاد بقوته التعبيرية ودلالته البلاغية تحقق معنى الصلة في تلك الفئة و إبراز صفة الإنفاق في سبيل الله وجعلها خاصية مميزة لهم، وبنى النظم جملة الصلة على الفعل المضارع (ينفقون)؛ ليؤكد على طبيعة تلك الفئة وماهم عليه من الاستمرار في الإنفاق، فليس هذا الفعل يقع منهم عارضا بل هو أمر مستمر ومتجدد، وفي قوله:(أموالهم) مجاز مرسل علاقته الكلية حيث عبر بالكل (المال) وأراد الجزء (جزءا من المال)؛ للدلالة على شدة حرصهم على هذا الفعل وحبهم الإتيان به حتى إنك حينما ترى عطاءهم و مداومتهم عليه تظن أنهم يخرجون كل أموالهم لا جزءا منها، ولاحظ أن جملة الصلة اشتملت على الفعل الظاهري (ينفقون) ودوافعه الأساسية وما صاحبها من نية وإخلاص باطني (ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ)، بغرض بيان ما توطن في أنفسهم من فعل تلك الطاعة والابتعاد عما يضر بها أو يفسدها بقناعة عميقة "تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتا"(١)، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾، وعبر عن نياتهم ومراد فعلهم بالجملة الاسمية، مستخدما المصدر (ابْتِغَاءَ، وَتَثْبِيتًا) دون الفعل؛ لأن الإنفاق وإن كان يقع منهم حينا بعد حين بمقادير متفاوتة فتجد منهم من يعطي الكثير ومنهم من يجود بالقليل كل على حسب حاله، لكن نياتهم في العطاء وهدفهم منه ثابت لا يتغير فهم فيه سواء، حيث تجد منهم حرصا شديدا على إخلاص النية وطلبا للثبات على هذا الإخلاص وتوطين النفس على هذا الفعل دون تردد، فناسب ذلك التعبير بالمصدر الدال على الثبات والمبالغة في العمل، ولما كان السياق هنا قد أتى في صورة المقارنة بين المنفقين المخلصين وأولئك الذين ينفقون رياءً، فقد حرص النظم على أن يكون لجملة الصلة دور في تأسيس المثل

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ):١/ ٣٥٩، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

الإيجابي حيث اشتملت على ما يدل على صفة إنفاق المال بنية ابتغاء مرضاة الله وجعلت من تلك الصفة سمة مميزة لهذه الفئة، مما يجعلها النقطة المحورية للمقارنة؛ لهذا ينبغي تلمس تلك النقطة في المشبه به، ومن يتأمل المشبه به في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ يجد أنه بُدِئ بالجنة التي هي رمز للطبيعة المزدهرة الغناء، وفي هذا إشارة إلى قبول فعلهم وجميل صنيعهم، وفي التعبير بـ(ربوة) وما تحمله من دلالات منها؛ الزيادة والنماء والعلو، يقال: ربا الشيء يربو، إذا زاد، وربا الرابية يربوها، إذا علاها[١]، ما يدل على عظيم أجرهم وكثرة ثوابهم وعلو مكانتهم، والمتتبع أقوال العلماء في ربوة يجد أنهم ذكروا "أن خير الجنات ما كان في الربوة لتنالها الشمس وتخترقها الرياح اللواقح"[٢]، فأشجار الربى تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا للطافة هوائها[٣]، وقد يكون المقصود من القيد "كون الأرض طينا حرا، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا ونما، فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ربعها، وتكمل الأشجار فيها[٤]، ومجمل ذلك كله أن تقييد الجنة بربوة جعلها محصنة من التلف بحسن موقعها وبعدها عن عوامل الفساد التي يتعرض لها غيرها، ووفر لها مقومات الحسن والنماء؛ وبهذا يكون تخصيص الجنة بأنها في ربوة فيه إشارة إلى حسن فعل تلك الفئة وتنويه بعظيم أجرهم، وأن فعلهم هذا معصوم من الرد بحسن نيتهم وصدق مقصدهم، ومن هنا تتكشف بعض الدلالات البلاغية لـ(لباء)؛ إذ إن استعمالها جعل السياق ينفتح والمعنى

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (المتوفى: ٣٩٥هـ): ٢/ ٤٨٣.تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) : ٨٤/٤، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) : ٢/ ٣٦، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

(٤) مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ): ٥٠/٧، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

يزداد حتى ترى فيه معاني كثيرة تتسق مع مقاصد النظم والدلالة السياقية للتركيب، لأن الجنة علت الربوة فاحتمل السياق أن تكون (الباء) قد نابت عن (على)، كما أن الربوة محل وظرف قد حوى الجنة فاحتمل السياق أن تكون النيابة عن (في) للدلالة على الموقع المتميز للجنة، لكن من دقة النظم أنه لم يعبر بـ(على) فيقول: "جنة على ربوة"؛ لأنه لو عبر ب(على) لكانت الغاية هي إظهار معنى الاستعلاء ولاقتصر المعنى عليه دون ما سواه، كما أنه لم يعبر بـ(في)؛ لأنه لو عبر بها فقال: "جنة في ربوة"، لكان غاية النظم التركيز على الاحتواء والمكانية فحسب وما احتمل السياق غير معناها، لكنه لما عبر بـ(الباء) اتسع المعنى، واتساع المعنى يتناسب مع اتساع العطاء وزيادة المنزلة وقبول العمل من تلك الفئة المخلصة، لكن القول بالنيابة فحسب جعل المشبه به لا يعكس وجه الشبه المراد على النحو الذي قصده النظم الحكيم؛ لأنه بهذا يكون قد انتزع منه جانبا مهما وصفة لا غنى عنها في المشبه وهو الجانب الدال على الثبات الذي كان غاية رئيسة عند تلك الفئة، وسمة ظاهرة مميزة لهم في فعلهم حتى جعلوه مقصدا لفعلهم، وقد عبر عنه النظم بقوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ومن هنا تظهر دلالة من دلالات التعبير بـ(الباء) لا يمكن أن تراها مع القطع بالنيابة وهي الحرص على استصحاب دلالة الإلصاق، تلك الدلالة التي تشير إلى وصف الثبات والاستقرار، فالجنة وإن علت الربوة واتخذت منها ظرفا لها فإنها أيضا ملتصقة بها ثابتة في قرارها لا يضرها تعاور العوامل عليها، وهذا المعنى في المشبه به يقابل الثبات الذي عبر عنه النظم في المشبه بل وأكد عليه بصياغته في صورة المصدر، فهم لا يثنيهم عن فعلهم أي شيء بل هم ثابتون على عطائهم متمسكون بإخلاصهم، ولو عبر النظم عن هذا المعنى بحرف الجر (على) بدلالته على الاستعلاء أو حرف الجر (في) الدال على الظرفية، لاقتصر عطاء النظم وما اكتمل بناء الصورة التشبيهية، وعليه فإن استخدام "الباء" هنا قد أدى دورا مهما في إبراز معنى العلو والارتفاع مع ما يدل عليه من سمو المنزلة، والإشارة إلى موقعها المتميز، مع التأكيد على رسوخ الجنة والتصاقها الدائم بالربوة حتى صار

كونها بربوة وصفا ملازما لها الأمر الذي يرسخ في الأذهان صورة الجنة وهي ذات مقومات مثالية تساعد على نمو أشجارها وازدهار ثمارها، وهذا المعنى يتوافق تمامًا مع حال المنفقين الذين "يثبتون أنفسهم" على حب الإنفاق، فكأن نفوسهم ثابتة راسخة ملتصقة بهذا العمل الصالح، لا تتزعزع ولا تتغير، بل تزداد رسوخًا مع كل إنفاق.

كما أن دلالة الإلصاق والثبات مهدت لمعنى استمرار العطاء مع كل ظرف وفي كل حال، والذي عبر عنه النظم في قوله: ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، أي أن حال من ابتغى بنفقته مرضاة الله وجاهد نفسه حتى ثبتت على إخلاصها مثله كمثل تلك الجنة التي ثبتت والتصقت بموقع متميز منحها مزيّة الاستقرار والتمكين من عوامل الطبيعة، فتكون أقل عرضة للسيول الجارفة أو الركود مما وفر لها مقومات الإنبات والازدهار في شتى أحوالها فإن أصابها وابل ضاعف إنتاجها فأعطت أكلها ضعفين، وإن قل مطرها أعطت بما أصابها من طل فهي مثل من "يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره، فخيره دائم وبره لا ينقطع ... فالوابل والطل على هذا عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة"[١]، وعلى هذا فإن القول بالتناوب مع إهمال المعنى الأصلي فيه إجحاف وتضييع لمقصد النظم وبلاغته وعدم توخي أغراضه، وتضييع لأحواله السياقية ودواعيها التي تقتضي استعمالا دون آخر.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) ٥٨/٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

الشاهد الثاني:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة (٢٧٤)

موطن الشاهد: الباء في﴿ بِاللَّيْلِ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

ذهب الإمام إلى أن (الباء) هنا تنوب عن حرف الجر (في) فيقول: "وَالْبَاءُ فِي: بِاللَّيْلِ، ظَرْفِيَّةٌ"(١)، لكنه لم يوجه دلالات التعبير بـ(الباء) دون (في).

التوجيه البلاغي:

جاء التعبير بـ حرف الجر (الباء) في قوله﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بدلًا من استخدام حرف الظرفية الشائع استخدامه مع الأزمنة كالليل والنهار، فبمجرد سماع (الليل، والنهار) تتطلع الأذهان لحرف الجر (في)، وعند مطالعة البيان الحكيم تجد أنه عدل إلى (الباء) مما يفتح بابًا للتأمل البلاغي والدلالي، وللوقوف على تلك الدلالات وهذه الأسرار نقف مع دلالة السياق في محاولة للوصول إلى قصدية الخطاب للوقوف على مناسبة (الباء) لتلك القصدية، ومن الملاحظ أن هذا التعبير القرآني أتى في سياق بيان أفضل الأوقات والأحوال التي يمكن للإنسان أن يخرج فيها صدقاته، وذلك بعدما بين أفضل الأبواب التي تخرج إليها، "كما أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة في أحكام الإنفاق، لذا فقد اشتملت على ما يرشد الخلق إلى أكمل وجوه الإنفاق"(٢)، يقول الإمام البقاعي عن هذه الآية:" ولما حض على النفقة فأكثر وضرب فيها الأمثال وأطنب في المقال ولم يعين لها وقتاً كان كأن سائلاً قال: في أي وقت تفعل؟ فبين في آية جامعة لأصناف الأموال والأزمان والأحوال أنها حسنة في كل وقت وعلى كل حال"(٣)، وعلى ذلك يتبين أن هذا السياق يصور أفضل حالة لإخراج الصدقات؛ لذا أتي هذا التصوير القرآني في

---

(١) البحر المحيط: ٢/ ٧٠٢.

(٢) يراجع مفاتيح الغيب: ٧/٧١.

(٣) نظم الدرر: ٤/١٠٧.

قالب تعبيري يكشف عن تلك الصورة، ومن يتأمل هذا القالب التعبيري يجد أنه أسس على الاسم الموصول (الذين) ومعلوم أن الاسم الموصول في القرآن الكريم له دلالات بلاغية تسهم في بيان البلاغة الشاملة للنص، ومن هذه الدلالات التي أداها الاسم الموصول هنا دلالة التعميم ويؤكد ذلك مجيئه على صيغة الجمع؛ ليجعل الحكم المفهوم من صلته يشمل كل من يقع منه مضمون الصلة في أي زمان ومكان، فلا تقتصر على عدد قليل من الأفراد المتميزين بل هي سمة لمجموعة أوسع من المؤمنين، وهذا العموم من شأنه أن يشجع المتلقين على التطلع إلى مضمون الصلة حتى يكونوا من بين أولئك الموصوفين، وعلى ذلك فإن مضمون الصلة هنا أصبح أمرا مميزا وشرطا واضحا لمن أراد أن يدخل في تلك الزمرة التي شملتها صلة الموصول، وقد لمح الامام الطاهر بن عاشور معنى العموم وصرح به في مستهل حديثه عن قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ...﴾ جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أن خصص الكلام بالإنفاق للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله"[١]، ويؤكد على معنى العموم في بيانه سبب دخول(الفاء) في خبر الموصول فيقول:" لما كان المبتدأ مشتملا على صلة مقصود منها التعميم، والتعليل، والإيماء إلى علة بناء الخبر على المبتدأ- وهي ينفقون- صح إدخال الفاء في خبره"[٢]، وأتت جملة الصلة مصدرة بالفعل المضارع الدالة على التجدد والاستمرار؛ لتكشف أن هذا الفعل منهم لم يكن أمرا عارضا بل هو طبيعة مستمرة تتجدد فيهم، فهم دائما ما يكونون في بذل مستمر وعطاء دائم مما يدل على أنهم قد روضوا أنفسهم على هذا الفعل في جميع الأوقات والأحوال، وبهذا تجد أن الفعل المضارع قد أتى متناغما مع إيقاع التعميم، دالا على الوسيلة الموصلة للدخول ضمن زمرة هؤلاء الفائزين، وتأمل التعبير بـ(أموالهم) والتي تتسق وحبَّهم لهذا العمل ومداومتهم عليه، فالمعلوم

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) : ٧٧/٣، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤.

(٢) السابق: ٧٧/٣

أنهم يتصدقون ببعض مالهم لكن حرصهم الشديد على هذا الفعل بشكل متجدد يجعل من يراهم يظن أنهم يتصدقون بكل مالهم، فعبر بالكل (أموالهم) وأراد بعض المال من باب المجاز المرسل الذي علاقته الكلية؛ للدلالة على المبالغة والاستمرار في العطاء، وهذا التعبير يتناغم مع جو العموم إذ إنه يوضح أن من صفة هؤلاء إنهم يتصدقون من جميع أصناف أموالهم دون أن يتيمموا منها صنفا دون صنف، وقوله: ﴿ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾ أي "يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال"(١)، وفي استخدام أسلوب الطباق في (الليل والنهار) ما جعل الإنفاق يستوعب جميع أوقات هذه الطائفة ويجعل جو العموم يدلي بأستاره على السياق، وقدم الليل على النهار؛ ليدل على أفضلية هذا العمل في ذاك الوقت لما فيه من خفاء، ومعلوم أن صدقة الخفاء أفضل من العلن، ومعلوم أيضا أن الليل مظنة الستر، وهذا المقصد يتناسب مع تقديم (سرًّا) على (علانية)، ولما كانت صدقة الليل أفضل من النهار؛ لأنها خلت من الرياء فقد أتى مع الليل بحرف الجر (الباء)، الدال على الإلصاق دون (في)؛ ليدل على أن الليل والنهار ليسا ظرفا لفعلهم فحسب وليس المراد هنا هو اقتصار النظم على مجرد تحديد الوقت بل المراد بيان أن فعلهم لكثرته واستمراره أصبح ملابسا ومصاحبا لجميع أوقاتهم حتى أصبح الإنفاق صفة ملازمة لهم مستغرقة كل أوقات الليل والنهار، وهذا أبلغ من أن يكون الليل والنهار مجرد ظرف حوى فعلهم، فالمعنى الأول يتناغم مع الدوام والاستمرار ويوحي بأن الانفاق ممتد ومتصل حتى استوعب كل أزمنتهم فلا يقتصر على وقت دون غيره، أما لو قال (في الليل) أو لو قصرنا دلالة (الباء) على الظرفية؛ لدل على وقوع الفعل داخل حيز الوقت فقط، دون هذا الإيحاء بالملازمة والدوام والملابسة، وهذا المعنى الذي بثته (الباء) في ثنايا النظم يتسق ومعنى العموم الذي عم ظله البيان من مفتتح الآية وصار

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ): ٣١٩/١، دار الكتاب العربي – بيروت،، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

ملازما للسياق، ويدل على أن هناك فروقا دلالية بين الظرفية المستفادة من (الباء) والظرفية المستفادة من (في)، فإذا كانت ظرفيةُ (في) ظرفيةً تقف حدودها عند دلالة التضمين والاحتواء، فإن ظرفيةَ (الباء) ظرفيةٌ تتعدى التضمين والاحتواء إلى الملاصقة، مما يجعل القول بأن (الباء) هنا دلت على المعنى الأصلي لها وهو الإلصاق أولى من القول بالتناوب؛ لأن دلالة الإلصاق تتناغم مع معطيات السياق ومتطلبات النظم.

ولكن لماذا دخلت (الباء) على الليل دون النهار؟

لعل النظم اختص (الباء) بالدخول على الليل؛ ليشير إلى العناية الخاصة التي أولاها لهذا الوقت وخصوصية الإنفاق فيه حيث إن الإنفاق في الليل يكون أشد إخلاصًا وأبعد عن مظاهر العلانية، وعلى ذلك تنتقل دلالة الإلصاق والملازمة إلى صفة الإخلاص، وقد يكون دخول(الباء) على الليل؛ لأن الإنفاق في النهار من الأمور الشائعة التي لا تحتاج من المنفقين إلى بيان أن هذا الوقت يصلح للإنفاق إذ إن الأصل أن يخرج الإنسان صدقاته نهارًا حيث معاش الناس، لكن لما كان الإنفاق ليلا من الأمور غير المعتادة والتي يندر وقوعها لما في الليل من سكون وخلود لراحة ونوم، فناسب ذلك دخول (الباء) على الليل؛ ليوجه المنفقين إلى هذا الوقت ويضفي عليه مزيد عناية وتوكيد، ثم تنتقل هذه العناية وذاك التوكيد إلى النهار بدلالة العطف؛ لأن العطف مبني على نية تكرار العامل؛ وبهذا فإن الادعاء بأن (الباء) هنا في هذا السياق إنما تضمنت معنى (في)، فيه مخالفة لمقصد النظم وإضعاف لبلاغة السياق، وتعارض مع الغاية الأصلية للتركيب إذ إن لحرف(الباء) خصوصية في المعنى وطعما يختلف في مذاقه ورائحته عن دلالة الظرفية وإن بدا في الظاهر للبعض أنهما سواء.

الشاهد الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ سورة البقرة من الآية: (٢٨٢)

موطن الشاهد: (الباء) في قوله: ﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

رجح الإمام كون (الباء) هنا بمعنى الظرفية حيث يقول: " فسوق بكم أي: ملتبس بكم، أو تكون الباء ظرفية، أي: فيكم، وهذا أبلغ، إذ جعلوا محلا للفسق"(١).

التوجيه البلاغي:

أتى هذا الشاهد القرآني في نهاية آية ذكر فيها تشريع جديد وأحكام خاصة بالمعاملات المالية والمادية التي من شأنها أن تقيم العدل وتثبت دعائم الثقة في المعاملات؛ ولأهمية هذا التشريع وتلك الأحكام وحرصا من النظم على الالتزام بما فيها فقد فصّل النظمُ أحوالها وبسط فيها القول حتى أتت في أطول آية في كتاب الله عز وجل؛ ليظهر حرص الشريعة على بناء حصون مانعة حول أحكامها فختم الله هذه الآية بتحذير شديد وتهديد قوي لكل من تسول له نفسه هدم أحكامها أو الخروج عن حدودها فأتى هنا بما لا يسمح لأحد أن يُرهق الكاتب أو يُثقل على الشاهد، ولا يُعذر الكاتب أو الشاهد إن قصّرا أو امتنعا، وقد صاغ النظم هذا التهديد في أسلوب قوي من شأنه أن يلفت الانتباه إلى خطر الإضرار بأي أحد يتعلق بأمر هذا التشريع ويتجلى ذلك في قوله: ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ فهنا نهيٌ عن المضارة والفعل (يُضَارَّ) محتمل للبناءين فيحتملُ أن يكونَ مبنياً للفاعلِ، فيكونُ «كاتب» و «شهيد» فاعلَيْن ويكون النهي للكاتبُ بأن يكتب ما لم يمل عليه فيزيد أو ينقص أو يترك الاحتياط؛ فيضيع حقا، ويكون النهي للشاهدُ عن كتمِ الشهادةِ، أو أن يزيد فيها أو ينقص منها، ويُحْتمل أن يكونَ الفعلُ هنا مبنياً لما لم يسم فاعله، والمعنى: أَنَّ أحداً لا يُضارِرُ الكاتبَ ولا الشاهدِ، بأن يؤذيه طالب الكتبة أو الشهادة، فيقول: اكتب لي أو اشهد لي في وقت عذر أو شغل

(١) البحر المحيط: ٢/٧٤١.

للكاتب أو الشاهد، أو يضرهما بأن يمنعهما عن مهماتهما[١]، وأتى الفعل (يضار) على صيغة المضارع؛ ليدل على أن النهي متجدد ومستمر، وليس المقصود النهي عن حالة معينة أو موقف محدد، واستعمل النظم الحكيم هنا اللفظة ببنائها ومعناها حتى اتسعت لهذه المعاني كلها، والتي أبقت الباب محتملا كل من قد يُحدث الضرر فيشمل النهي كل الجهات، ويُحكم السياج حول الحق، لأهمية هذا الأمر أتى (بالكاتب والشاهد) نكرتين لقصد العموم فيكون المعنى: أي كاتب وأي شاهد، وبعد أن نهى النظم الحكيم عن إيقاع الضرر بأي طرف من أطراف هذا الحكم بين خطورة الوقوع في هذا الفعل كاشفا عن أن مخالفة هذا التشريع لها خطر كبير وجرم عظيم، وذلك في قوله: ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ وقد صاغ النظم هذه الجملة في قالب تعبيري يدل على أهمية ما تضمنه من حكم وجعلها تحمل قدرا كبيرا من التهديد والتحذير، حيث جاءت في قالب شرطي أداته (إن)؛ ليتناغم مدلول الشرط مع دلالات النهي في (لا يضار) لأن (إن) بدلاتها على الشك وعدم تيقن حدوث الفعل توحي بأن وقوع هذا الفعل من طائفة المؤمنين يجب أن يكون محل شك فإن وقع كان نادرا لا شائعا، وأتى فعل الشرط (تفعلوا) بمبناه ومعناه؛ ليتآزر مع دلالات النهي عن إيقاع الضرر، فصياغته في زمن المضارعة بعد أداة الشرط يقوي دلالة القلة وعدم القطع بالحدوث المستفادة من حرف الشرط (إن)، وحذف المفعول في (تفعلوا)؛ ليدل على أن هذا الحكم عام لأي ضرر قد يوقعه الإنسان بأي طرف من الأطراف صغر هذا الضرر أم كبر، فكل ما سيفعل داخلٌ في دائرة التحذير، وبهذا يكون الحذف هنا أبلغ من الذكر في النهي عن إيقاع الضرر إذ إنه يغلق الباب أمام أي ضرر قد يحدث، وفي التعبير بـ(تفعلوا) دون غيرها كـ(تضروا)؛ ليدل على أن جواب الشرط الحامل في طياته جزاء الفعل سيكون

(١) يراجع: المحرر الوجيز: ١/ ٣٨٤، مفاتيح الغيب:٩٩/٧، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ): ٢/ ٦٧٥- ٦٧٦، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ): ٢٧١/١، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

مستحقا لأي إنسان يحدث أي فعل من شأنه أي يجلب أي ضرر أو يكون سببا في حدوث ضرر في الحال أو الاستقبال، وبهذا فإن التعبير بـ(تفعلوا) يوجه المخاطبين إلى عدم فعل أي شيء يضر أو قد ينتج عنه أو يحتمل من فعله ضرر، ويأتي جواب الشرط حاملا في طياته ذروة التحذير حيث أتى جملة اسمية للدلالة على ثبوت ما تضمنه من حكم، وأكد الجملة بـ(إن)؛ ليضفي مزيدا من التأكيد على ما تضمنه الجواب من تهديد، كما أن مجيء الجواب جملة اسمية استدعى مجيء (الفاء) الدالة على السرعة وهذه (الفاء) توحي بأنه متى وقع فعل هذا الضرر حل الفسوق وثبت، وأتى اسم (إن) ضمير؛ للدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه(١)، أي أن ما فعلتموه من ضرر عظيم شأنه كبير خطره، وفي هذا مزيد من الزجر والتخويف لكل من تحدثه نفسه بأن يوقع ضررا أو أن يعطل الشرع الذي نهجه الله، وقوله: ﴿فسوق بكم ﴾ دل بمعناه وصياغته على شدة هذا الجرم؛ فدلالة اللفظ تشير إلى أن هذا الفعل ليس مجرد ذنب هين مألوف بل هو خروج عن منهج الله؛ لأن من معانيها الخروج عن الدين(٢)، وهو يعد من أقسى الأوصاف وأشدها على النفس، ومجيئه نكرة دل على عظم هذا الجرم وشدة بشاعته، وصياغته على (فعول)؛ لزيادة المبالغة في التوبيخ والتقريع، وآثر التعبير بـ(الباء) في قوله (بكم)؛ ليتناغم مع دلالة التوبيخ الشديد والتخويف من إيقاع الضرر، ويجمع شتات التهديد والوعيد، حيث كشفت (الباء) عن أن هذا الفعل ليس هيناً، بل هو انحراف خطير يلتصق بصاحبه ويخرجه عن دائرة الأمانة والاستقامة إلى دائرة الفسق، حيث أكدت على أنهم لو فعلوا ما يوجب الضرر لالتصق بهم الفسوق ولصار صفة ملازمة لهم ملتصقة بهويتهم حتى تصبح جزءا منهم لا ينفك عنهم ووصمة عار لهم تجعلهم يخرجون عن الطاعة، وليس مجرد

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): ٤٦٨/٣، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٢) لسان العرب لابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ) مادة (ف س ق)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .

شيء وقع فيهم أو حدث مر عليهم أو مخالفة عابرة، وهذا أبلغ من أن يقول: فسوق فيكم لأن فيكم هنا أضعف في المعنى وأوهن في الدلالة؛ إذ إنها تدل على الظرفية فحسب أي أن الفسوق وقع فيكم لكنه ليس بالضرورة أن يكون قد التصق بكم، فالظرفية لا تعطي نفس الإحساس بأن الفسوق عارٌ يلحق بفاعلِه، أما الالتصاق هنا فهو أبلغ في الذم وأشد في اللوم والتوبيخ، وأنسب للسياق من الظرفية؛ لأن المعنى الذي يطلبه السياق ليس مجرد وقوعكم في الفسق، بل صيرورة الفسق حالة راسخة مرتبطة بكل فرد منكم ارتباطًا وثيقًا، وبهذا يحصل للنظم مقصده فيلقي في النفوس الخوف من هذا الفعل، ويوجد عندهم جزعا من الاقتراب منه، وعلى ذلك فإن القول بأن (الباء) هنا بمعنى (في) يعد جورا على بلاغة النص القرآني وإضاعة لمراد النظم ومقصده.

الشاهد الرابع:

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ سورة آل عمران من الآية (١٧)

موطن الشاهد: الباء في (بِالْأَسْحَارِ)

رأي الإمام أبي حيان:

يرى الإمام أن (الباء) في قوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ بمعنى (في) حيث يقول: عن معنى الآية: "وَالْمُسْتَغْفِرِينَ اللَّهَ لِذُنُوبِهِمْ فِي الْأَسْحَارِ" [١]، لكنه لم يذكر أسباب العدول في التعبير عن (في) إلى (الباء).

التوجيه البلاغي:

من يتأمل السياق الذي ورد به الشاهد يجد أنه أتى في بيان صفات عباد الله المتقين الذين وعدهم الله بالأجر العظيم والثواب الكبير، وبعد أن بين الله هذا الثواب شرع في تعداد أوصافهم الحميدة وأعمالهم الصالحة التي استحقوا بها هذا الفضل، وبين أن هذه الصفات من الأمور التي عرفوا بها وتميزوا بفعلها حيث ساق بعضها في معرض جملة الصلة، وذكر بعضا منها في صورة صفات نصبت على المدح، والنصب على المدح هنا جعل في السياق كسرا لظاهر الإعراب أحدث "في الذهن حركة جديدة فينتبه فضل انتباه إلى الكلام الجديد، كما أن تغاير الإعراب ينبه إلى بيان مزية خاصة في المقام لما به المدح... كأنه يشهد لهم بأنهم بهذه الصفات امتازوا بها على سائر المؤمنين وصاروا أحق بذلك الوعد، كما أن هذا التغاير فيه تقرير أن هذه الصفات ممدوحة في ذاتها"[٢]، وعطف بعضها على بعض؛ للإشارة إلى كمال كل صفة منهم بذاتها، وأتت على صيغة اسم الفاعل؛ للدلالة على أنها صفات ثابتة وراسخة فيهم ومتأصلة في طباعهم ملازمة لهم حتى عرفوا بها وأصبحت من شيمهم لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم؛ إذ ليست من الأمور الطارئة عليهم مما جعلهم يستحقون الجزاء العظيم والثواب

---

(١)البحر المحيط: ٥٧/١.

(٢) يراجع تفسير المنار:٢٠٧/٣، بتصرف

الوفير، ويأتي التعبير الفريد﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ في ختام الآية؛ ليثير دلالات عميقة من خلال استخدام حرف الجر" الباء "مع الظرف" الأَسْحَارِ"، ويتناسق بشكل بديع مع التعبير باسم الفاعل" الْمُسْتَغْفِرِينَ"، كما يخدم مقام المدح والثناء على هؤلاء المتقين، فكما هو معلوم أن التعبير باسم الفاعل في هذا السياق دل على ثبوت هذه الصفات فيهم واستمرارهم عليها؛ لذا فقد عبر النظم بـ(الباء) دون(في)؛ لأنه لو عبر بـ(في) الدالة على الظرفية لدل على أن السحر كان مجرد ظرف لاستغفارهم، وأن الاستغفار منهم وقع في حيز هذا الوقت، وأن هذا الوقت حوى فعلهم وأحاط به مما يوحي بأن فعلهم قدره معلوم، أما التعبير بـ(الباء) فقد دل على التصاق استغفارهم بهذا الوقت وملاصقته له حتى استغرق الاستغفار الوقت كله وصاحبه والتصق به ولازمه فصار الاستغفار في هذا الوقت الفاضل دأبا لهم وعادة راسخة فيهم، حتى ضاق الوقت على أن يحتوي فعلهم ولا أن يحيط بفضله؛ لذا أتى بالوقت في صيغة الجمع (الأسحار)؛ وبهذا تتسق دلالة (الباء) مع دلالة الثبوت والدوام المستفادة من دلالة اسم الفاعل وتتناغم مع مقام المدح والثناء، مما يعكس عمق التعبير القرآني وبلاغته في تصوير حال المتقين و يعطي صورة واضحة عن عمق إيمانهم وإخلاص أفعالهم وحرصهم على التقرب إلى الله في أفضل الأوقات بأتم الأعمال وأكمل العبوديات، وهذا لم يكن ليتحقق إذا سلمنا بأن (الباء) هنا إنما هي بمعنى (في)؛ لأن لدلالة الإلصاق في هذا السياق ظلالا وإيحاءات تعجز دلالة الظرفية عن الوفاء بها، ومثل هذه الاعتبارات التي يراعيها النظم الحكيم قلما يُرَاعَى مثلها في غيره من الكلام.

الشاهد الخامس

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ سورة آل عمران من الآية:(٤١).

موطن الشاهد: (الباء) في ﴿بِالْعَشِيِّ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

ذهب الإمام أن (الباء) هنا للظرفية بمعنى (في) فيقول:" وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَمَرَ بِتَسْبِيحِ اللَّهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ... و: (الباء) في: بالعشي، ظرفية أي: في العشي."[1] لكنه لم يعلل أو يوجه الأسباب التي استدعت التعبير بالباء للدلالة على معنى (في).

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد القرآني في سياق الحديث عن زكريا –عليه السلام– حيث أمره ربه ألا يكلم الناس ثلاثة أيام، وأمره أن يشغل نفسه ويملأ يومه بعبادة الله من ذكر وتسبيح وتهليل وصلاة، وطالما أن زكريا –عليه السلام– قد أمر أن يشغل وقته كله بتلك العبادات وأن ينقطع بالكلية عن كلام الناس ناسبه أن يأتي التعبير القرآني بالأمر بكثرة العبادة حتى تشغل يومه وليله وتغنيه عن كلام الناس، ومن دلالات هذا العموم حذف الموصوف في قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ حيث صح أن يكون ذكرا كثيرا، أو وقتا كثيرا، فحذف الموصوف دل على الكثرة المطلقة في العدد والزمن، وفي عطف التسبيح على الذكر دلالة على أنه طلب منه أن ينوع من عبادته فتكون ما بين ذكر وتسبيح وصلاة وذل أدعى لشمولية العبادة لليوم والليلة دون فتور أو ملل، ويأتي قوله: ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾؛ ليشير إلى شمولية التسبيح وامتداده على مدار اليوم والليلة؛ إذ إن هذين الوقتين يمثلان طرفي النهار، وذكرهما يعني الإشارة إلى أهمية ذكر الله وتسبيحه في كل حين، وفي بدايات الأعمال ونهايتها، وفيما بينهما، وتأتي (الباء)؛ لتأكد تلك المعاني وتدل على استغراق تلك العبادات لجميع أزمنة اليوم والليلة بحيث تلتصق تلك العبادة بهذه الأوقات، فـ(الباء) أفادت مصاحبة وملابسة تلك العبادات بهذه

(١) البحر المحيط: ١٤١/٣، ١٤٣.

الأوقات حتى عمت كل اليوم والليلة ولازمته في جميع أوقاته، ولو عدل النظم إلى التعبير بـــ(في)؛ لدل على مجرد كون هذين الوقتين ظرفـــا لهـــذه العبـــادات دون الإشارة إلى ملاصقة أو استغراق واستيعاب، ولكان المفهوم المدلول عليـــه هـــو مجرد إيقاع تلك العبادات في هذه الأوقات دون الإيحاء بالاستغراق والشمول وهذا مخالف للمراد؛ لأن مقصد النظم هو إيقاع الفعل مع استيعابه لكـــل أجـــزاء هـــذا الزمن، وعلى هذا فإن القول بأن (الباء) هنا إنما أتت بمعنى (في) يعـــد إجحافـــا بدلالة النظم ومراده .

الشاهد السادس

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران من الآية: ٩٦)

موضع الشاهد: الباء في (بِبَكَّةَ)

توجيه الإمام أبو حيان: ذهب الإمام إلى أن (الْبَاء) فِي بِبَكَّةَ ظَرْفِيَّةٌ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ بِالْبَصْرَةِ [1] مكتفيا بالتوجيه النحوي فحسب، وهذا التوجيه لا يكشف عن بلاغة التعبير القرآني، ولا عن أسباب إيثار التعبير بالباء بدلا من (في).

التوجيه البلاغي:

من الواضح أن هذا الشاهد أتى في سياق بيان أفضلية بيت الله الحرام على غيره والتنويه بشأنه، كما أن فيه ردا على بعض مزاعم اليهود وشبهاتهم، حيث قيل: إنه قد" تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مُهاجَر الأنبياء وفي الأرض المقدسة وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله هذه الآية[٢]، التي بينت أن بيت الله الحرام هو أول بيت وضعه الله للناس، وقد حرص النظم أن يسوق تلك الحقيقة في قالب يشتمل على مقومات تتناسب ومقام التعظيم ورد مزاعم اليهود، فحرص على تعيينه تعيينا واضحا حيث عدل عن ذكر البيت باسمه العلم (الكعبة) إلى التعريف بالموصولية؛ لأن هذه الصلة (الذي ببكة) صارت أشهر في تعين (الكعبة) عند السامعين، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره، بخلاف اسم الكعبة: فقد أطلق اسم الكعبة على غير الكعبة[٣]، وهذا أنسب لمقام الجدل، كما أنه عبر بكلمة (بكة) التي اختلف العلماء في معناها فقيل: " اسم لمكَّة، وقيل: لغة فيها؛ ... وقيل: اسم لما بين جبليها.

---

(١) البحر المحيط: ٢٦٨/٣.

(٢) أسباب نزول القرآن، للواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ):١١٥، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

(٣) يراجع التحرير والتنوير: ١٣/٤. بتصرف.

وقيل: هي اسم للمَطَاف[١]، وهذا الاختلاف يدل على اتساع المعنى وتأتي (الباء) لتدخل على تلك الكلمة التي اتسعت دلالتها لتضفي على المعنى قوة وحبكة لا يمكن لحرف الجر(في) ولا غيره أن يقوم به، حيث إن التعبير بـ(الباء) جعل المعنى يتجاوز مجرد الدلالة المكانية التي يدل عليها حرف الجر "في"، فكما هو معلوم أن (الباء) تدل على الإلصاق والملابسة وهذا يدل على أن البيت ملاصق وملابس لـ(بكة) بكل معانيها، بخلاف (في) التي لو أتت لدلت على أن (بكة) ما هي إلا ظرف مكان استوعب البيت الحرام، أما (الباء) فبما تحمله من معنى الإلصاق والقرب فإنها تعطي المتلقي شعورا لا يخطئه الحس بما بين المكان والبيت من ارتباط روحي وعلاقة وثيقة بينهما لا تنفك، حتى أصبحا جزءا واحدا لا يتجزأ وهذا يضفي على الدلالة أهمية هذا المكان وفضله وكأن البركة حلت به واستقرت بفضل ملاصقة بيت الله به، كما أن استعمال (الباء) حمل بعدا دلاليا آخر حيث جعل معنى الظرفية المكانية غير موجود بمعناها المجرد فإذا حوت بكة البيت مكانا لكنها لم تحوه قدرا ومكانة، إذ إن مكانة البيت أجل وأعظم من أن يحويها مكان وزمان، كما أن فيه دلالة على أن البيت الحرام مرتبط بهذا المكان منذ وجوده الأول فلا يمكن أن يكون في غيره، وفي هذا تأكيد على خصوصية هذا المكان وأنه اختيار رب العالمين، ويؤكد ذلك الارتباط التعبير القرآني بكلمة (بكة) في هذا المقام؛ ليدل على العلاقة الوثيقة بين البيت والمكان يقول الإمام ابن عاشور:" ومن إعجاز القرآن اختيار هذا اللفظ عند (بكة) ذكر كونه أول بيت، فلاحظ أيضا الاسم الأول"[٢] يعني أول تسمية لمكة، والذي ذكر أن "بكة اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم علما على المكان الذي عينه لسكنى ولده بنية أن يكون

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ):٢٦٦/٢، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

(٢) التحرير والتنوير: ١٣/٤

بلدا[1] وعلى هذا فإن لخصوصية المكان الذي دخلت عليه (الباء) أثرا في اختيار الحرف الأكثر مناسبة للسياق، وأثرا في بيان معنى هذا الحرف؛ وبهذا فإن مجيء (الباء) لا يمكن قصره على معنى (في) فحسب بل إن التعبير "بها أدى إلى اتساع المعنى حتى دل على معنى الاستقرار والتمكن والحلول، بينما "في" قد تحصر المعنى في مجرد الوجود داخل المكان، ولما كانت (الباء) تؤذن بكل هذه الدلالات فقد آثرها النظم وعدل اليها قاصدا دلالتها الأصلية.

(١) السابق : ١٢/٤.

الشاهد السابع

قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ سورة آل عمران، من الآية: ١٥٤.

موضع الشاهد: الباء في قوله:﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

ذكر أن (الْبَاء) هنا بمعنى الظَرْفِيَّة [١] دون أن يوجه أسباب إيثار النظم التعبير بـ(الباء) عن معنى الظرفية.

التوجيه البلاغي:

هذا الشاهد أتى في سياق حديث القرآن عن بيان حال من خرج مع النبي – صلى الله عليه وسلم– يوم أحد، حيث بين النظم الحكيم أن من خرج مع النبي – صلى الله عليه وسلم – انقسموا إلى طائفتين كانت أحوالهم مختلفة فأولهما: المؤمنون حقا الجازمون بصدق النبي –صلى الله عليه وسلم– وبما أتى به، المطمئنون لوعد ربهم، الخارجون للقتال من أجل نصرة دين الله، وثانيهما: هم المنافقون الشاكون في صدق النبي – صلى الله عليه وسلم– الخارجون رئاء الناس وطلبا للدنيا وحرصا على جمع الغنائم، همهم خلاص أنفسهم لا الدفاع عن دين الله ونصرته، وقابل النظم الحكيم بين حال الفريقين فجعل أهل الإيمان في أمن وطمأنينة وثبات حيث مُلئت قلوبهم ثقة بالله تعالى ووعده لهم بالنصر على أعدائهم حتى بلغ أمنهم "إلى حيث غشيهم النعاس، فإن النوم لا يجيء مع الخوف، فمجيء النوم يدل على زوال الخوف بالكلية... فالنعاس في القتال أمنة، لأنه لا يكون إلا من غاية الوثوق بالله والفراغ عن الدنيا، "[٢]، ووصف حال المنافقين بأنهم قد اشتد بهم الجزع حتى ملأ الخوف قلوبهم وطار النوم من أعينهم، وقد وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾، وفي التعبير بـ(قد) الداخلة على الفعل الماضي ما يدل على

---

(١) البحر المحيط: ٣/٣٩٤.

(٢) يراجع مفاتيح الغيب :٩/ ٣٩٣

تأكيد ما هم عليه من شدة الخوف والحرص على النجاة و تحقق وقوع الهم والقلق واستقراره في نفوسهم بحيث لم يكن مجرد شعور عابر أو احتمال، بل تحول إلى أمر واقع وثابت، كما أن التعبير بالفعل (أهم) يدل على شدة القلق الذي بلغ بهم حد الإذابة والإنهاك النفسي، وكأن الهموم والأفكار قد أحاطت بهم واستولت عليهم بشكل كامل، وفي إضافة الضمير المتصل "هم" بالفعل ما يوحي بأن هذا الهم والقلق كان مركزًا على أنفسهم ومصيرهم، مما يكشف عن ضعف إيمانهم وانشغالهم بالخوف على حياتهم، وفي مجيء كلمة "أنفسهم" بعد الفعل "أهمتهم" ما يؤكد على هذا الانشغال بالذات والحرص عليها مما يبرز جانب الأنانية والخوف المذموم في تلك الحال، كل هذا يدل على مدى استيطان تلك المشاعر السلبية في قلوب تلك الطائفة حتى أثرت في سلوكهم وظنونهم، ثم فسر همهم فقال: ﴿ يظنون بالله غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ وهذا الوصف يكشف عن طبيعة الظنون السيئة التي تملكت هذه الطائفة واستولت على عقولهم وأفكارهم، والواضح أن هذه الظنون كانت متجددة مع كل موقف وكل مشهد بل ومع كل لحظة تمر بهم في موقف القتال وكل فكرة تجول بخاطرهم، حتى أصبح هذا الظن الفاسد بربهم ملاصقا لجميع حالاتهم ملازما لهم مستغرقا لفكرهم، مرتبطا بجميع أحوالهم، فظنونهم الباطلة ليست مجرد أفكار عابرة حول الله، بل هي راسخة وملتصقة بذهنهم ونسبتهم إليه، وهذا المفهوم لا يمكن أن يستقيم مع دلالة النظم إلا باستخدام (الباء) التي دلت على قوة الالتصاق والاستغراق والملازمة، أما التعبير بـ" في" فقد يفيد الظرفية أو الوعائية، بمعنى أنهم يجعلون ربهم محلا لظنونهم دون الدلالة على التصاق ظنونهم بالله في جميع أحوالهم وأزمانهم، لذا فإن الجزم بأن (الباء) هنا إنما أتت لتكون بمعنى الظرفية لا يتسق ومتطلبات المعنى والسياق ولا يستقيم مع بلاغة النظم ومتطلباته، وإلا فلماذا اختار النظم الحكيم التعبير بـ(الباء) دون (في) في هذا السياق ؟ وإلا فإن الحرف الموضوع لمعنى الظرفية في الأصل أولى بموضعه من غيره، ما لم يكن في العدول عنه سر بلاغي اقتضاه السياق ولا يتحقق بدونه مقاصد النظم كما هو الحال في هذا الشاهد.

الشاهد الثامن

قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ (سورة الأعراف من الآية:٥٧.)

موضع الشاهد: الباء في قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾

رأي الإمام أبي حيان:

ذكر الإمام لـ(لباء) عدة معاني لكنه رجح واختار كونها ظرفية بمعنى (في)، فيقول: "(فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ) الظَّاهِرُ أَنَّ الْبَاءَ ظَرْفِيَّةٌ وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ أَيْ فَأَنْزَلْنَا فِيهِ الماء"(١)، ومع أنه رجح معنى الظرفية فإنه لم يذكر الدلالات البلاغية وراء مجيء (الباء) بمعنى (في).

التوجيه البلاغي:

يعد هذا الشاهد القرآني من بديع النظم الحكيم في إيثار التعبير بحرف (الباء) حيث وقعت (الباء) هنا موقعا بديعا فاتسع معها المعنى مما جعل السياق يحمل دلالات متنوعة ومعاني متعددة لم تكن لتظهر بدونها أو مع غيرها كـ(في) حيث إن مجيء (الباء) جعل مرجع الهاء في قوله﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ يتعدد والمعاني تفيض، فاحتمل أن يكون المعنى " بالبلد أو بالسحاب أو بالسَّوْق أو بالريح"(٢) ولو عبر بغيرها لتحدد المرجع و لضاق المعنى، فلو قيل: (فأنزلنا الماءَ)، لكان المعنى مقتصرًا على فعل الإنزال، ولو قيل: (فأنزلنا فيه) لعاد الضمير إلى البلد و لاقتضبت الدلالة وتحدد المعنى في كون المقصود: فأنزلنا في البلدة الماء، ولو قيل: فأنزلنا منه، لعاد الضمير على السحاب ولانحصرت الدلالة عند حد أنزلنا من السحاب، لكن النظم حينما عبر بـ(الباء) أضفى أبعادًا متعددة للمعنى، ومع كل هذه المعاني التي يحتملها السياق تجد (لـلباء) وقعا لا تراه مع غيرها في هذا المقام، فقد جسدت (الباء) بما فيها من معنى الإلصاق جانبا من قدرة الله تعالى حيث كشفت عن شدة ارتباط إنزال الماء بالسحاب وأكدت على أن

---

(١) البحر المحيط: ٧٨/٥.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٢٣٤/٣.

بينهما علاقة وثيقة ومصاحبة لا تنفك، فالسحاب هو الوسيلة التي يسخرها الله لإنزال المطر، كما أن دلالة الإلصاق المستفادة من (الباء) تتسع لتوضح العلاقة القوية بين إحياء البلد الميت وإنزال الماء، ومدى احتياج تلك الأرض لهذا الماء النازل عليها، فبين عملية الإحياء وإنزال الماء علاقة قوية ورباط وثيق؛ إذ إن بينهما ملاصقة؛ وبهذا فإن استعمال (الباء) بدلالتها على اللصوق قد عملت على إيجاد حلقة وصل بين السحاب والماء والأرض الميتة، فبين الماء والسحاب علاقة وصلة والتصاق، إذ إن السحاب يحمل الماء، والماء يخرج من السحاب، وبين الماء وإحياء الأرض الميتة علاقة وصلة إذ إن الأرض هي من تستقبل الماء وتحتضنه لتجعله ملتصقا بها حتى تبنت به زرعها وتخرج نباتها وقد كانت (الباء) بدلالتها الأصلية في هذه العلاقة التي احتضنها هذا التعبير القرآني هي واسطة العقد ومحور الدلالة.

الشاهد التاسع

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ سورة الأعراف من الآية:٨٦.

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾

رأي الإمام أبي حيان: ذهب الإمام إلى أن (الْبَاء) فِي بِكُلِّ صِرَاطٍ ظَرْفِيَّةٌ [١].

التوجيه البلاغي:

وردت هذه الآية الكريمة في سياق حديث شعيب -عليه السلام- مع قومه وقد استطاع النظم الحكيم أن يضمن هذه الكلمات القليلة معاني كثيرة حيث ذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾، يجوز أن يحمل على المعنى الحسي الحقيقي ويكون المقصود من الصراط هو الطرق الحسية التي يسلكها الناس للوصول إلى شعيب -عليه السلام- ويكون المعنى نهيهم عما كانوا يفعلونه من الجلوس على الطرقات وقطعها على من يغشى مجلس شعيب -عليه السلام- ليسمع دعوته وتخويف من آمن به -عليه السلام- ومنعه من الذهاب إليه أو اتباعه وتهديده بالقتل، ويجوز حمل المعنى على المجاز فيكون القعود على الصراط خارجا مخرج التمثيل والمقصود من الصراط هو مناهج الدين وطرقه[٢]، وعلى ذلك يكون حاصل المعنى أن شعيب -عليه السلام- قد نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء: (أولها) أنه نهاهم عن قعودهم على الطرقات التي توصل إليه وما يقومون به من تخويف لمن يجيئه حتى يرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته، (ثانيها) نهاهم عن صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة، (ثالثها) نهاهم عن ابتغائهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو

---

(١) البحر المحيط: ١٠٧/٥.

(٢) يراجع: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤٢٧/٤، مفاتيح الغيب: ٣١٤/١٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٢٤٧/٣، روح المعاني: ٤١٤/٤.

المشوهة لها"[1]، وقد صاغ النظم هذه المعاني في قالب لغوي دقيق حيث وجه النهي إلى الفعل (تقعدوا) مسندا إلى واو الجماعة مما يدل على أن هذا الفعل كان يقع من جمع فيصح أن يكون كل جماعة منهم كانوا يقومون بدور من هذه الأدوار المتعددة التي يتحملها السياق، كما أن إيثار التعبير بالقعود دون غيره كالجلوس، ما يدل على أنهم كانوا يطيلون الوقت في أداء تلك المهام التي باشروها بأنفسهم حيث إن "القعود فيه لبث وطول مكث بخلاف الجلوس فإنه يدل على سرعة التحول والتغير؛ ولهذا يقال قواعد البيت ولا يقال جوالسه"[2]، وهذه الإطالة جعلتهم ينوعون من سبل الصد فتارة يردون الناس عن مكان شعيب –عليه السلام–، وتارة يصدونهم عن اتباع الحق بتشويههم الحقائق وإلقائهم الشبهات، وهذا الأمر ناسبه التعبير بـ(كل) الدالة على العموم، ولما كان هذا هو حالهم فقد أتى النظم الحكيم بـ(الباء) في (بكل)؛ لأنها تضمن كثيرا من هذه المعاني التي يتحملها السياق وتتفق معها، حيث جعلت السياق يحتمل معنى (على مكان) و(في مكان)، أي أن هؤلاء نوعوا من أماكن قعودهم بما يتناسب مع المهمة التي رصدوها لأنفسهم فتارة يعتلون الأماكن ليرصدوا المارة حتى يصدوهم عن الإيمان وعن الوصول للنبي شعيب –عليه السلام–، وتارة يختارون لأنفسهم حيزا ومكانا يحتويهم ليحكموا فيه خطتهم ومكايدهم، لكن يظل للمعنى الأصلي (للباء) وهو الإلصاق التأثير الأقوى في المعنى لأن هذا المعنى كان له أثر في استبطان سر النظم حيث كشف عن حال قعودهم حيث كانوا ملازمين لكل صراط مما يوحي بأن القعود لم يكن منهم مجرد فعل عابر أو وقوف لحظي، بل اتخذوا من الصراط مكانًا دائمًا وملازمًا حتى استوطنوه مما يدل على الإصرار

(١) يراجع تفسير المنار: ٤٧٥/٨.

(٢) ينظر الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (المتوفى: ١٠٩٤هـ):١١٥٦، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، ٢٨٨، ٢٩٠، الطبعة الأولى الرياض: مكتبة العبيكان،١٤ هـ / ١٩٩٣م.

على هذا الفعل والثبات عليه، وأن هذا الفعل كان منهم تربصا؛ وبهذا تجد (الباء) قد أدت دورا كبيرا في اتساع المعنى والدلالة على المراد وتصويره بدقة عالية ولو أن النظم أتى بغير (الباء) لما دل المعنى على حال هؤلاء من ملازمتهم هذا الفعل وطول استقرارهم لأن المكث والإلصاق فهم من دلالات (الباء) التي صوّرت للمتلقي مدى إصرار قوم شعيب –عليه السلام– وكشفت عن تربصهم وطول مكثهم وتلبثهم بالطرقات وكأنهم أقاموا بكل صراط إقامة دائمة فهم ملازمون للصراط ملتصقون به وهذا يدل على شدة عنادهم ومدى حرصهم في منع الناس عن الوصول إلى شعيب –عليه السلام– بكل الوسائل والطرق، ولو سلمنا بأن (الباء) هنا إنما هي لمعنى الظرفية؛ لأدى ذلك لضياع مراد النظم و لضعفت بلاغته، ولكان ذلك من باب التساهل في بيان معنى الحرف القرآني، والتداخل الذي يؤدي إلى ضياع خصوصياته.

الشاهد العاشر

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (سورة الإسراء، الآية: ١١)

موطن الشاهد: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾

رأي أبي حيان: ذهب إلى أن الباء في (بالشر وبالخير) بمعنى (في). (١)

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في سياق حديث القرآن الكريم عن وصف جانب من سلوك الإنسان حين يجهل العواقب، فتراه يدعو بالشر على نفسه أو على غيره في لحظة غضب أو يأس كما يدعو بالخير في حال الرغبة والرجاء، ويحتمل أن يكون مراد السياق هنا " أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن خيره فيه، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء"(٢)، وقد بين القرآن الكريم شدة حرص الإنسان على دعائه عن طريق هذا البناء التركيبي، فعبر بالفعل المضارع (يدعو)؛ ليدل على تجدد هذا الدعاء واستمراره لانشغال الإنسان به وشغفه بتحققه حتى سيطر عليه وصار سلوكا متكررا عنده، وقد كشف القرآن عن شغفهم بهذا الأمر حيث أتى الفعل (يدع) محذوف (الواو) لغير علة نحوية أو صرفية؛ للتنبيه على سرعة وقوع هذا الدعاء على ألسنتهم مع خفاء العواقب عليهم، فالفعل يصدر منهم على سبيل العجلة من غير إدراك وذلك لرغبتهم الشديدة في حصول ما يدعون به حتى وإن كان المدعو به شرًا، وتأمل موقع (الباء) وتناسبها مع هذه المعاني وكيف استطاعت أن تنشر على السياق من معانى الإلصاق ما يوحي بأن الإنسان في دعائه بالشر لا يكون فعله مقتصرا على الدعاء، بل إنه يصحبه إلحاح وإصرار فتراه يستغرق فيه كما يستغرق في دعائه بالخير، ويلتصق بهذا الفعل حتى يستحضره ويطلبه بإلحاح، فهو يطلب الشر بإلحاح كما يطلب الخير دون أن يدرك عواقبه، كما أن التعبير

(١) البحر المحيط: ١٩/٧

(٢) مفاتيح الغيب: ٣٠٥/٢٠

بـــ(الباء) في "بالشر" و"بالخير" يوحي بأن هذا الإنسان لا يفرّق في طريقته بين ما يضره وما ينفعه، فهو يدعو بالشر بنفس الطريقة التي يدعو بها بـــالخير، ممـــا يعكس عجلته وجهله، أما لو وُضعت (في) مكان (الباء) أو لو سلمنا بأن (البـــاء) هنا إنما هي بمعنى (في)، لاختل المعنى البلاغي والدلالي ولفقد التركيب التـــوازن البلاغي الذي أرادته الآية، ورمى إليـــه الســـياق، ولمـــا أدّت الآيـــة وظيفتهـــا في تصوير عجلة الإنسان وجهله بعواقب دعائه مع شدة إصراره، حيـــث تـــوحي (في) بالوقوع في حيز الفعل وقد يقع الإنسان في حيز الفعل دون أن يتلبس به أو يصر عليه.

وإذا كان إصرار الإنسان على الدعاء بالخير من الأمور غير المذمومة فإن استخدام (الباء) مع الشر جعلها حاضرة في كلا الموضعين وهذا يبـــرز مفارقـــة عجيبة عند هؤلاء إذ كيف يمكن للإنسان أن يدعو بالشر بنفس الحماســـة التـــي يدعو بها بالخير؟ وهذا يلفت النظر إلى تناقض في سلوك الإنسان عند عدم قدرته على التمييز بين ما ينفعه وما يضره، كما أن وجود (الباء) في كلا الطرفين (الشر والخير) يعزز جمال المقابلة البلاغية، ويُظهر التوازن في التركيب مع التنـــاقض في المعنى، مما يزيد من تأثير الآية في النفس، ويأتي تذييل الآية ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾؛ للتأكيد على هذا المعنى فـــ(كان) تدل على أن اسمها (الإنســـان) صـــار متصفا بخبرها(عجولا) اتصافا شديدا بلغ حد الإلصاق، وأتى بعجول على صـــيغة المبالغة؛ للتأكيد على هذا التمكن، وبهذا تجد تناسقا عجيبا بين دلالات تراكيب هذه الآية، وتجد أن (الباء) قد شاركت في هذا التناسق والتنـــاغم بمعناهـــا الأصـــلي ودلالتها على الملاصقة.

الشاهد الحادي عشر

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ سورة العنكبوت، من الآية: ٨٨) موطن الشاهد الباء في ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾

رأي أبي حيان: ذهب إلى أن (الباء) في (بِوَالِدَيْهِ) ظرفية بمعنى (في)... أي وصينا الإنسان في أمر والديه بخير [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في سياق وصية إلهية عظيمة تتعلق بالإحسان إلى الوالدين، وهو من أعظم القيم الأخلاقية في الإسلام، ولعظم تلك المكانة وقدسية تلك العلاقة الفطرية القائمة على الاتصال الجسدي والعاطفي منذ الولادة بل وقبلها فقد عبر النظم بما يصور تلك المكانة في أبهى صورها ومن ذلك استخدام (الباء) في "بوالديه" حيث عززت (الباء) معنى السياق وجعلته أكثر تأثيرًا في النفس؛ لأنها جعلت العبارات تحمل من الدلالات ما لا تحمله بدونها أو مع غيرها، فمعنى الإلصاق الحسي والمعنوي الذى يشرق من ثنايا (الباء) جعل الوصية هنا ليست مجرد أمر بالإحسان بل هي وصية ملتصقة بالوالدين لا تنفك عنهما في كل الأحوال والأوقات كما أنها تدل على أن الإحسان يجب أن يكون لصيقا بمعاملتهما مما يعمّق المعنى العاطفي والوجداني، و يجسد مكانة الوالدين العظيمة في الإسلام، ويُعلي من شأن برّهما، وفي هذا تنبيه لمزيد العناية والاهتمام بأمرهما، ولو سلمنا إلى كون (الباء) بمعنى (في) لتغير المعنى ولضاعت الكثير من الدلالات البلاغية الرفيعة؛ لأن الاقتصار على دلالة الظرفية يفقد السياق معنى الإلصاق والقرب الذي نشرته(الباء) على السياق بدلالتها الأصلية، كما أن قصر الدلالة على معنى (في) من شأنه أن يبدد ظلال الاستمرار في القرب والعناية، وهذه الدلالات هي الدعائم الأساسية والركائز الأصيلة التي يقوم عليها مراد النظم هنا .

(١) البحر المحيط: ٣٤٣/٨

الشاهد الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ سورة لقمان: من الآية ٣٤.

موطن الشاهد: الباء في ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾

رأي أبي حيان: يرى أن (الباء) بمعنى الظرفية، أي: في أي أرض؟ (١)

التوجيه البلاغي:

المتأمل في هذا الشاهد القرآني يجد أن القول الذي ذهب إليه الإمام أبو حيان بأن (الباء) هنا للظرفية فيه نظر، وإلا لماذا آثر النظم الحكيم التعبير بـ(الباء) دون (في) التي تدل على الظرفية؟ ومن يتأمل أغراض النظم ودلالات تراكيبه يجد الإجابة عن هذا التساؤل، فإذا كان النمط المألوف في مثل هذا المعنى هو أن يقال:(في أي أرض تموت)، فإن قوله تعالى: (بأي أرض) يعد من مبتكرات القرآن التي اقتضاها السياق؛ ليحمل إشارات ودلائل غيبية وأمورا معجزة تحتاج إلى تأمل للوقوف على أسرار التعبير بهذا النمط العالي، ولعل السبب في إيثار التعبير بـ(الباء) هو أن التعبير بهذا الحرف له دلالات تختلف عن التعبير بـ(في) وهذه الاختلافات هي التي جعلت النظم الحكيم يستخدم (الباء) هنا دون (في)، فـ(الباء) تدل على الإلصاق و(في) تدل على الظرفية، والتعبير بما يدل على الإلصاق أعطى دلالة وإيحاء بأن هناك علاقة وثيقة بين الإنسان والأرض التي يموت فيها، هذه العلاقة تصل إلى حد الملاصقة بينهما وكأن الإنسان جزءٌ منها، بخلاف (في) التي لا تدل إلا على مجرد كون هذه الأرض ظرفا للإنسان دون أن تشير إلى أي علاقة بينهما، وعلى ذلك فإن استخدام (الباء) يؤكد على وجود علاقة وثيقة ومقدرة سلفا بين الإنسان والأرض التي يقبض فيها ويدفن، ويؤكد هذا ما أشارت إليه السنة النبوية المشرفة من وجود رابط قوي بين الإنسان والأرض التي يموت فيها، حيث تربط بين مكان الدفن والطينة التي خُلق منها الإنسان. ومن هذه الأحاديث ما روي عَنْ أَبِي عَزَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ فِيهَا

(١) البحر المحيط: ٨/٤٢٥.

حَاجَةً»[1]، وما رواه أبو سعيد الْخُدْرِيِّ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجِنَازَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ: «قَبْرُ مَنْ هَذَا؟» فَقَالُوا: فُلَانٌ الْحَبَشِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سِيقَ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ إِلَى تُرْبَتِهِ الَّتِي مِنْهَا خُلِقَ»[2]، كما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم– أن كل إنسان يُخلق من طينة الأرض التي سيدفن فيها حيث ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا وَفِي سُرَّتِهِ مِنْ تُرْبَتِهِ الَّتِي يُولَدُ مِنْهَا، فَإِذَا رُدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ رُدَّ إِلَى تُرْبَتِهِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا حَتَّى يُدْفَنَ فيها"[3] فهذا الحديث يشير إلى علاقة تكوينية تربط الجسد ببقعة محددة من الأرض، وكأن الجسد يعود إلى أصله ومنبته الأول ليلتصق به ويختلطا معا، وهذا المعنى يؤدى بـ(الباء) خاصة، ولا ترى تلك الدلالات مع معنى الظرفية، بل يمكن القول بأن الظرفية هنا هي معنى سطحي لا ينم عن معرفة عميقة لمجريات الخلق، أما(الباء) فتفضي لدلالات عميقة تكشف عن معرفة كاملة لحال الإنسان من منشئه حتى مماته.

(١) حديث صحيح، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ):١٩/١٤ حقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣.

(٢) حديث صحيح الإسناد، المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم محمد النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ):١/ ٥٢١، حديث رقم (١٣٥٦) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠

(٣) رواه الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي،(المتوفى: 463 هـ):٣١٣/٢، دار الكتب العلمية – بيروت، العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لجمال الدين أبو الفرج الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ): ١٩٣/١، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م

الشاهد الثالث عشر

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ سورة الروم من الآية: ٢٣.

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

رأي أبي حيان: ذهب إلى أن (الباء) في (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) بمعنى (في) حيث يقول: وابتغاؤكم من فضله: أي فيهما، أي في الليل والنهار معا... ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم من فضله فيهما.(١)

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد القرآني في سياق ذكر عدد من الآيات والعلامات الدالة على قدرة الله -تعالى- ورحمته، وأتى ذكر النوم باعتباره آية عظيمة من آياته سبحانه وتعالى، فهو الموتة الصغرى التي يستريح بها الجسد وتطمئن بها النفس، ومن يتأمل حرف الجر "الباء" في قوله "بالليل" يجد أنه يحمل دقة عظيمة تثير تساؤلات بلاغية حول سر اختياره بدلاً من "في" التي قد تبدو أكثر شيوعًا للإشارة إلى ظرف الزمان، ولعل السر فيها يكمن في المعنى الأصلي لها وهو "الإلصاق" الذي يتوافق مع قصدية الخطاب القرآني في هذا المقام، كما أن الفروق الدقيقة بين (الباء) و(في) لها دور في خدمة السياق والوصول للدلالة العميقة لمعانيه، فحرف (الباء) لم يأتِ هنا لمجرد الدلالة على الظرفية الزمانية كما صرح بذلك الإمام أبو حيان، بل يحمل معنى أعمق وأكثر مناسبة للسياق حيث لم يقصر عملية النوم على كونها مجرد انقطاع عن الوعي في أي وقت، بل جعلها حدثا "ملاصقا" ومصاحبا لليل، وكأن الليل بظلامه وسكونه هو السبب المهيئ والمساعد على هذا النوم، مما يجعله نومًا هادئًا وعميقًا ومحققًا للغاية منه وهي الراحة والسكينة، كما توحي دلالة الإلصاق المستفادة من (الباء) إلى الارتباط الوثيق بين ظلام الليل وسكونه وبين حاجة الجسد الفطرية للنوم، وأكدت على أن الليل هو الوقت الطبيعي والفطري المخصص للراحة والنوم، وعليه فليس كل نوم

---

(١) البحر المحيط ٣٨٣/٨

آية لكن النوم الذي يأتي مصاحباً لليل بسكينته وظلمته هو الأجدر بكونه آية من آيات الله الدالة على عظيم قدرته ورحمته، وهذا يجعل النعمة أظهر وأعظم، فالله لم يهب النوم فقط، بل وهب له وقته وبيئته المثالية (السكون والظلمة)، ومن يتأمل البناء الكلي للآية يجد أنه يرمي إلى إثبات الحكمة والتدبير الإلهي وإيقاظ العقل للتفكر في حكمة الخالق بدليل أن الآية ختمت بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ و(الباء) هنا تخدم هذا السياق بشكل مباشر، فلو استخدمت "في"، لكان المعنى أن النوم يقع في الليل كمجرد حدث اعتيادي، أما (الباء) فتُبرز وجود قانون إلهي ونظام مُدبَّر من خلال علاقة سببية وتلازم بين الليل والنوم، وهذا التلازم ليس مصادفة، بل هو من تدبير الحكيم الخبير الذي صمم نظام الكون بإتقان فـ(الباء) تحوّل الظاهرة من مجرد "وصف" إلى "دليل" على التصميم المتقن الدال على نظام كوني دقيق ومصمَّم بحكمة، كما أن استعمال (الباء) هنا قصد به "الدلالة على وقوع النوم بأي جزء من أجزاء الليل وليس خصوص أعماقه ووسطه كما يوحي به معنى الظرفية، وفي ذلك إيماء الى استغراق الزمن كله"[(١)]، وعليه فإن النظم الحكيم لو استعمل (في) مكان (الباء) أو لو سلمنا هنا بأن (الباء) إنما هي بمعنى (في) لفقد النص القرآني جزءًا من عمقه البلاغي ولاقتصر عطاء المعنى على كون النوم يقع داخل حيز الليل الزمني و لتحولت الدلالة إلى وصف النوم بوصفه حدثا يقع ضمن إطار زمني، لكنه لا يحمل معنى الارتباط الحميمي والتلازم الفطري الذي تحمله (الباء) ولفقد السياق ظلال كون الليل بخصائصه (ظلامه، وسكونه) هو وسيلة وأداة لحدوث النوم المريح، ولما كان هذا متناغما مع كون ذلك آية عظيمة من آيات الله، فالاقتصار والتسليم المطلق بكون (الباء) بمعنى الظرفية يضعف قوة "الآية التي يمتن الله بها على عباده، فكون النوم ملتصقاً بالليل هو "آية" أبلغ وأقوى من كونه فقط يقع "في" الليل.

(١) ينظر، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد أمين الخضري : ١٨٩، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م .

ومن يراجع كلام العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يجد أنهم اختلفوا في بيان معنى هذه الآية فقيل: (منامكم) أراد منها النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة: ثم قال: (وابتغاؤكم) أي فيهما أيضا فإن كثيرا ما يكتسب الإنسان بالليل، وقيل: أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض[١]، وعلى ذلك فالآية من الاحتباك حيث دل ذكر النوم على القيام منه، ودل الابتغاء على الانقطاع عنه، فحذف نهاية الأول وبداية الثاني[٢]، ومن يتأمل السياق يجد أنه يشير إلى التكامل الوظيفي بين الليل والنهار فجمع بين النوم والسعي على طلب الرزق وأتى حرف (الباء) هنا؛ ليخدم البناء الأسلوبي للآية؛ ويبرز تلك الدلالات إبرازا بديعا من خلال أسلوب اللف والنشر المرتب، فاللف في حدثين هما (مَنَامُكُم) (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ)، والنشر في زمنين (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) وجاءت (الباء) لتكون هي الأداة الأسلوبية التي تربط الجزء الأول من "اللف "(مَنَامُكُم) بالجزء الأول من "النشر "(بِاللَّيْلِ) برباط أقوى من العطف المجرد، أو من الظرفية فهي "تلصق" النوم بالليل باعتباره الأصل، ثم يأتي ذكر النهار؛ ليكمل المعنى ويفهم السامع بدلالة المقابلة أن "ابتغاء الفضل" ملتصق بالنهار، فـ(الباء) تساهم في إحكام هذا الأسلوب البلاغي وتوضيح المقابلة الدقيقة بين الأفعال وأزمنتها الرئيسة، ومن جهة أخرى ترى دلالة لـ(الباء)؛ إذ من المعلوم أن الترتيب الطبيعي هو أن النوم يكون معظمه وأساسه ملتصقاً بالليل، وطلب الرزق والسعي يكون معظمه وأصله في النهار فجاء التعبير (مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ)؛ ليقرر هذه القاعدة الأساسية، ثم أضاف (وَالنَّهَارِ)؛ للإشارة إلى أن بعض النوم قد يقع في النهار (كالقيلولة)، كما أن بعض طلب الرزق قد يقع في الليل، فـ(الباء) حددت الأصل والأغلب، ثم جاء العطف للتوسعة والشمول، كل هذا وغيره لم يكن ليبوح به النص لو اقتصر فهم دلالاته على كون (الباء) بمعنى (في)، إذ إن دلالة الإلصاق هي الأليق ببلاغة النظم والأجدر بكشف أسراره، حيث قوت إحكامه وأثرت المعنى وجعلته أكثر عمقًا وإيحاء.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٩٣/٢٥

(٢) نظم الدرر:٧٢/١٥

الشاهد الرابع عشر

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ سورة النجم (٥٥)

موطن الشاهد: الباء في (فَبِأَيِّ).

رأي الإمام أبي حيان: ذهب الإمام إلى أن: الباء ظرفية(١).

التوجيه البلاغي:

من يتأمل السياق يجد أن السورة الكريمة عرضت مشاهد مهيبة من الوحي، توالت فيها دلائل القدرة الإلهية، وتذكير بنِعَمٍ لا تُعدّ ولا تُحصى امتن الله بها على عباده، وقد جاءت هذه الآية محل الشاهد كخاتمة مفعمة بالحجة، مشبعة بالتأمل، وقد اختلف أهل التفسير فيمن وُجّه إليه هذا الخطاب، فقيل: إنه للنبي –صلى الله عليه وسلم–، تذكيرًا له بنعم الله عليه، وتثبيتًا له في دعوته، وبيانا له أنه "يجب ألا تحصل له مرية في واحدة من آلاء ربه فإنها سواء في الإنعام"(٢) وقيل: بل هو خطاب عام، موجه" للإنسان على الإطلاق" ، وفي كلا الوجهين، يبقى الاستفهام قائمًا مقام الحُجّة، لا يُطلب منه جواب، بل يُراد به الإيقاظ، والتأنيب، والتثبيت، حيث أحدث إثارة للذهن وتحفيزا للتفكير تجاه تلك النعم التي عددها النظم الحكيم، وهذا الأمر من شأنه أن يُحدث صدمة توقظ السامع وتدفعه للتأمل في عظمة هذه الآلاء، وسواء أكان الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم–، أم لأي أحد فإن (الباء) هنا وقعت موقعا بديعا وكأنّها أتت في صدر الآية لتكون كاليد الخفيّة التي تُدني إليك النعم واحدةً تلو الأخرى، لا تُريكها من بعيد، بل تُلصقها بك، حتى لا يبقى لك مهرب من الاعتراف، ولا سبيل إلى الشك أو الإنكار، فـ(الباء) هنا لم تكن مجرد أداة لغوية، بل نافذة تُطلّ منها النعم على قلبك، تُخاطبك لا من وراء حجاب، بل من مسافة النفس إلى النفس تُقرّب النعم من المخاطب، بل تجعله في تماس مباشر معها، كما أن (الباء) لها وقع من جهة أخرى إذ إنها أخرجت النعم من الغائب إلى الحاضر فلو قيل: "أي آلاء ربك

---

(١) البحر المحيط ٢٨/١٠.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٥٦/٢٧.

تتمارى؟" لكان السؤال عن شيء قد يكون بعيدًا أو نظريًا، ولو قيل ففي أي آلاء ربك تتمارى؟ لضعف المعنى، وفقد السياق كثيرًا من قوته البلاغية، ووقعه النفسي، ودقته التعبيرية؛ لأن (في) توحي بأن النعم مجرد ظرفٍ أو سياقٍ عام والمخاطب يتحرك داخله، لكن المعنى مع (الباء) بدلالتها على الإلصاق يجعل النعم حاضرة في الذهن، محسوسة في الواقع، وكأنها تُعرض أمام عينيه فيجد المخاطب نفسه ملزما بالاعتراف مبتعدا عن الشك والإنكار وهذا ما يمكن أن يطلق عليه بلاغة الإلزام، وعلى ذلك فـ(الباء) هنا تآزرت مع الاستفهام ليجعلا المخاطب يرى كم هو غارق في أفضال لا تحصى، وآلاء لا حصر لها؟ بحيث لا يبقى معها مكان لشك أو إنكار فيكون المعنى: وهل تُمارِي وأنت ملتصق بهذه النعم، محاط بها، غارق فيها؟"، وبهذا فإن الوقوف عند حدود فكرة التناوب هنا غير كاف لفهم المقاصد الدلالية الجليلة والمعاني البلاغية البعيدة للنظم الحكيم.

الشاهد الخامس عشر:

قوله تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ سورة القلم، الآية: (٦)

موطن الشاهد: الباء في ﴿بِأَيِّكُمُ﴾

رأي الإمام أبي حيان: ذهب الإمام إلى أن: (الباء) ظرفية [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في مطلع سورة القلم حيث الأصلي أدتاغية متكاملة تبدأ بالقسم، وتُثبت الكمال للنبي ﷺ: في عقله وأجره وخلقه، ثم تنتقل إلى تفنيد مزاعم المشركين وتُمهّد لكشف ضلالهم وفتنتهم بأسلوب يجمع بين الرفق بالنبي ـﷺـ والحزم مع أعدائه، مشتملة على لون من التحدي من شأنه إبطال مزاعم المشركين وفضح ضلالهم، وبيان أنهم هم المفتونون، لا النبي ﷺ. فتأتي الآية :﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾؛ لتُظهر أن الجنون الذي رموا به النبي ﷺ، إنما هو فيهم، وتتجلى بلاغة القرآن هنا في أبهى صورها، حين يُساق الحرف الصغير ليؤدي دورًا عظيمًا في الدفاع عن النبي ﷺ، وفضح أعدائه، وإظهار الحق في ثوب التحدي، فلم تكن (الباء) هنا زائدة ولا عابرة، بل كانت سهمًا بلاغيًا أُطلق من قوس الوحي؛ ليصيب أعداء النبي ﷺ في مقتل، وتشقّ طبقات المعنى لتدل بمدلول الالتصاق على أن الجنون الذي اتهموا به النبي ﷺ، ليس وصفًا طارئًا بل صفة راسخة فيهم، ملتصقة بكيانهم، تسري في أقوالهم وأفعالهم، تجري في عروقهم، وتنسج خيوطها في أفكارهم، وتُطبع على وجوههم حتى صار كل من رآهم وكل من سمعهم يشهد عليهم بها، وهذا يتناسب تمامًا مع التحدي في قوله:﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، فالأمر ليس جدلًا نظريًا، بل مشهدًا سيُعرض على مرأى من الناس وسيتضح فيه من هو المجنون بلا لبس ولا غموض حتى يراه القاصي والداني، وهكذا، تتحول "الباء" إلى كاشفٍ بلاغيٍّ، يُزيل الغشاوة، ويُظهر الحقيقة، ويُسكت الخصم، لا بالضجيج، بل بالحرف الذي لا يُخطئ إصابة

(١) البحر المحيط ٢٣٧/١٠.

المعنى، وفي هذا لون من التهكم الخفي بهؤلاء المعاندين؛ لأنهم يتهمون النبي ﷺ بالجنون، بينما هم في الحقيقة غارقون في الفتنة والضلال كما أن (الباء) بمعناها الأصلي أدت دورا بارزا في رد مزاعمهم حيث جعلت السؤال في (أيكم المفتون) سؤالًا لا ينتظر جوابًا، بل يُلقي في روعهم أن الجنون الذي رموا به النبي ﷺ، إنما هو مرآة تعكس وجوههم، وأن المفتون ليس من جاءهم بالحق، بل من أعرض عنه واستكبر، ولو سلمنا بأن (الباء) هنا بمعنى (في) كما ذهب إلى ذلك الإمام أبو حيان؛ لتغير المعنى ولتبدل الحال؛ لأن ذلك يُوحي بأن الجنون طارئ، أو أنه مقام يُزار، ولما أدت الألفاظ دورها في الرد على المشركين.

نيابة (الباء) عن (من) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سورة الأنعام، من الآية:(١٠٠).

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

رأي أبي حيان: يرى أن (الباء) هنا بمعنى (من)، فيقول: وَمَعْنَى (بِغَيْرِ عِلْمٍ) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ مَا قَالُوهُ مَنْ خطاب وصواب. (١)

التوجيه البلاغي:

من يتأمل قوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يجد أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما قبلها﴿وَجَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾" فقوله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُشير إلى أن الأفعال التي ارتكبها المشركون من جعل الجن شركاء لله، وادعاء البنين والبنات لله – تعالى– لم تكن مبنية على أي حجة أو دليل أو معرفة صحيحة، بل كانت نتيجة للجهل الفاضح بالله تعالى وصفاته وما يجب له من توحيد، فكأن الآية تقول: فعلوا كل ذلك جهلاً منهم وعن غير بصيرة، وللوقوف على دلالة (الباء) يجب النظر فيما قبلها حتى تكشف عن مدلولها، ومن يتأمل السياق يجد أنه قد اشتمل على توبيخ شديد وزجر قوي لهؤلاء الذين يجعلون لله شركاء، ومن عجيب النظم أنه ساق قبل هذا الزجر آيات بينات تحمل دلالات قوية على وحدانيته، فعرض صورا كونية ومشاهد عجيبة تحمل دلالات قدرته وتثبت وحدانيته وتنفي عن غيره الألوهية؛ لتكون تهيئة لهدم مزاعم من اتخذ معه شريكا في ملكه، وتبدأ تلك التهيئة من قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى... ﴾ سورة الأنعام من الآية:٩٥، ثم تتابع الآيات التي تكشف عن نعم الله ودلائل قدرته وتبدأ جل هذه الآيات بقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي... ﴾؛ لتنبه المتلقي أن ما سيرد من نعم إنما هي من خلقه تعالى وتدبيره لا من تدبير غيره ولم ينازعه أحد في ذلك، ثم يأتي قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ... ﴾ بعدما بينه القرآن من آيات الله وعجائب صنعه؛

(١) البحر المحيط: ٦٠٣/٤.

ليحمل الزجر على فعلهم والعجب من صنيعهم، وقد حشد النظم عددا من الأدوات التعبيرية التي عمدت إلى توبيخ هؤلاء وذمهم وبيان كذبهم، ومن ذلك: بناء صدر الآية على التقديم والتأخير فقدم لفظ الجلالة (لله) على (شركاء) وقدم شركاء على (الجن)، أما فائدة تقديم (لله) على شركاء فهو استعظام "أن يتخذ لله شريك [١]، كما أفاد التقديم "أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء لا مطلق وجود الشركاء[٢]، أما تقديم (شركاء) على (الجن) فقد كشف عن أن هذا الفعل هو غاية في الفظاعة والشناعة؛ وذلك لأن التقديم أفاد معنى أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وأفاد مع هذا المعنى معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك مطلق لا من الجن ولا غيره؛ لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراة على شيء كان ما يتعلق بها من النفي عاماً في كل ما يجوز أن يكون له الصفة، وحكم الإنكار حكم النفي وإذا أخر فقيل: "جعلوا الجن شركاء الله"، لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه"[٣] وفي قوله: ﴿خَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ﴾ طباق يحمل الذم والزجر لهؤلاء على فعلهم، فالخرق "قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تفكر ولا تدبر... وهو ضد الخلق فإنه فعل الشيء بتقدير ورفق والخرق بغير تقدير"[٤]، وفي التعبير بالخرق دون غيرها كالافتراء أو الكذب دلالة على حمق تفكيرهم وشدة جهلهم وتماديهم في غيهم، فدل الخرق على الافتراء والكذب وزاد عليه معنى "الكذب الذي لا تقدير فيه ولا نظام، ولا روية ولا

(١) الكشاف: ٥٢/٢.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٥٣٨.

(٣) يراجع: دلائل الإعجاز، القاهر، الجرجاني (لمتوفى: ٤٧١هـ): ٢٨٦، ٢٨٧، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر: دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م، نظم الدرر: ٢١٥/٧.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ): ٢٨٠ تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

إنعام"[1]، بالإضافة إلى أن التعبير بـ"خرقوا" يدل على الفعل المتعمد والقصد في هذا الافتراء، فهم لم يخطئوا سهوًا، بل تعمدوا هذا الزعم الباطل، مما يزيد من حجم الذنب، كما أن في قولهم: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ ﴾ استعارة تصور بشاعة هذا الافتراء والجرأة على مقام الألوهية، فكما أن خرق الثوب يعتبر إفسادًا له وتشويهًا لجماله، فإن نسبة الولد لله –تعالى– هي إفساد لعقيدة التوحيد وتشويه لعظمة الخالق وجلاله، كما ساهمت الاستعارة في تقبيح هذا الفعل وتنفير السامع منه فهي تصوير حسي يجعل المتلقي يتخيل مدى شناعة هذا الجرم، فكأنهم قاموا بفعل مادي قبيح في حق الله تعالى يستحق أشد أنواع الذم والتوبيخ؛ ويأتي قوله (بِغَيْرِ عِلْمٍ)؛.لبيان معنى (خَرَقُوا) وتأكيد مضمونه، أي أنهم فعلوا ما فعلوه وقالوا ما قالوه "من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية"[2]، وعليه فإن قوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يُعتبر نفيًا قاطعًا لوجود أي أساس علمي أو شرعي أو حتى منطقي يدعم ادعاءاتهم، فهذه الأفعال لم تصدر عن تأمل أو فكر أو برهان، بل عن جهل مطبق، أو تقليد أعمى، أو هوى متبع كما أن هذه الجملة تزيد من عظمة وقبح الافتراء الذي ارتكبوه، فليس الأمر مجرد خطأ عارض، بل هو اتهام لله –تعالى– بالنقائص، وادعاء الشريك له، ونسبة الولد إليه، وكل ذلك يتم عن جهل تام بحقائق الأمور وصفات الله الكاملة؛ لهذا فقد أتى في قالب تعبيري يقطع بكذبهم ويكشف شدة جهلهم، ومن ذلك مجيء (علم) نكرة في سياق النفي للدلالة على العموم مما يدل على " انسلاخهم في خرقهم هذا عن كل ما يسمى علما، فلا هم على علم بمعنى ما يقولون ولا على دليل يثبته، ولا على علم بمكانه من الفساد والبعد عن العقل، ولا بمكانه من الشناعة والإزراء بمقام الألوهية والربوبية، إذ لو علموا بذلك لما ارتضوه[3]، وهذا المعنى الذي صوره النظم يظهر سر التعبير بـ(الباء) في ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ويكشف عن مناسبتها لسياق التهديد والإنكار، فالسياق ملىء

(١) تفسير المنار: ٧/ ٥٣٩.
(٢) الكشاف: ٢/ ٥٢.
(٣) تفسير المنار: ٧/ ٥٣٩

بالتقريع، و(الباء) تُعزز هذا الجو النفسي، كما أن التعبير بـ(الباء) ناسب أهم مقاصد سورة الأنعام وهو تنزيه الله عن الشرك والافتراء، فجاء التعبير بـ "بغير علم" ليُناسب هذا السياق، ويُظهر فظاعة الجهل والافتراء في آنٍ واحد؛ لأن حرف (الباء) بدلاته على الإلصاق دل على أن هذا الافتراء وقع ملاصقا بعدم العلم، وملازما للجهل، وهذا يتناسب مع مقام التوبيخ والتقريع، كما أن التعبير بـ(الباء) أظهر سوء فعلهم وجهلهم المركب، ودل على أن كل ما نسبوه إلى الله لم يكن على بينة بل هو محض افتراء؛ لأن الجهل كان ملاصقا بهم ومغلفا لقولهم، كما أن الملاصقة التي تفيدها (الباء) تشير إلى أن الجهل ليس مجرد صفة عارضة، بل هو جزء لا يتجزأ من هذه الأفعال، وهذه الادعاءات ملتصقة التصاقا شديدًا بانعدام الدليل والحجة والعلم، فالجهل هو الأساس الذي بُنيت عليه هذه المعتقدات الفاسدة، ولو سلمنا بأن (الباء) هنا بمعنى (من) لاختل المعنى وفسدت الصورة لأن التعبير بـ(من غير علم) يفيد الابتداء، أي أنهم ابتدؤوا هذا القول من غير علم، فهذا التعبير يركّز على نقطة البداية لا على الحالة المستمرة فلا يُبرز استمرار جهلهم و لا يصوّر الجهل حالةً ملازمة لهم، وكأن جهلهم كان في أول الأمر فقط، وربما زال لاحقًا، أما (الباء) فهي أدق في تصوير الحالة النفسية والفكرية للمشركين؛ لأنها جعلت التركيز على الحالة لا البداية مما " يبرز الحالة الذهنية المستمرة للمشركين، لا مجرد نقطة الانطلاق، وهذا يُعمّق صورة الجهل المركب الذي كانوا فيه، ويكشف عن أن جهلهم لم يكن مجرد سبب خارجي، بل هو عنصر ملازم للفعل نفسه طوال الوقت وهذا أشد وقعا و أدق في التوبيخ والذم والتقريع؛ وبهذا فإن استخدام (الباء) بدلالتها الأصلية، بدلاً من (من) أو معناها جعل التعبير أكثر إحكامًا وأقوى وقعًا وأضفي على الجهل صورة حسية ملموسة، فجعل هؤلاء وكأنهم يلتصقون بالجهل حين يفترون على الله وهذا يُعطي القارئ صورة ذهنية أعمق عن مدى كذبهم، وعليه فإنه يمكن القول بأنه لا ينهض بكل هذه المعاني ويشي بهذه الأغراض حرف غير حرف الإلصاق، كما أنك لا تجد ما وجدت من إحكام لو جاء النظم هكذا : وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ من غَيْرِ علْمٍ، أو لو قصرنا معنى (الباء) على (من) .

الشاهد الثاني:

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ سورة يونس من الآية: (٥١)

موطن الشاهد: (الباء) في ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.﴾

رأي أبي حيان: يرى أن (الباء) بمعنى (من) حيث يقول والمعنى: قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه...، ويجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب أي: أي شيء شديد تستعجلون منه، أي: ما أشد وأهول ما تستعجلون من العذاب [١].

التوجيه البلاغي:

وردت هذه الآية في سياق توبيخ وتقريع المكذبين بعذاب الله المستهزئين به المستعجلين إياه على سبيل السخرية والاستهزاء، ومن دلالات هذا التوبيخ ما ورد في ختام الآية التي سبقت تلك الآية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سورة يونس من الآية: (٥٠)

حيث عدل النظم من الخطاب إلى الغيبة في قوله ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وأتي بالظاهر في موضع المضمر فلم يقل: (ماذا تستعجلون منه) أو (ماذا يستعجلون منه)، "فوقع الإظهار في مقام الإضمار...؛ لقصد التسجيل عليهم بالإجرام، وللتنبيه على خطئهم في استعجال الوعيد"[٢]، ثم صدر هذه الآية باستفهام إنكاري في قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ قصد به تغليظهم وإفساد رأيهم"، كذلك الاستفهام في (الآن) استفهام إنكاري قصد به توبيخهم على أفعالهم وأتى بقوله: ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾" في موضع الحال من فاعل آمَنْتُمْ المقدر... وفائدة الحال تشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير"[٣]، وأتى التعبير بـ(الباء) في قوله: ﴿كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.﴾؛ ليناسب ظلال الزجر والتهكم،

---

(١) البحر المحيط: ٨٦/٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/ ١٩٣.

(٣) روح المعاني: ١٢٨/٦

ويكشف عن الدلالات النفسية لدى هؤلاء، حيث دلت (الباء) على أن استعجالهم لم يكن مجرد طلب بل كان تلبسًا واستهزاءً دائمًا، وسلوكًا متكررًا وكأنهم غارقون فيه ملتصقون به حتى صار الاستعجال حالًا ملازمًا لهم، وهذا الأمر يُظهر شدة استهزائهم، فجعلهم كأنهم يعيشون في حالة استعجال دائمة لا يفارقونها، وهذا يُشير إلى أن استعجالهم لم يكن سطحيًا، بل كان عميقًا ومتكررًا ومقصودًا حتى صار ميدانًا لفعلهم وسلوكهم، وهذا من شأنه أن يضفي على السياق نبرة توبيخية قوية، كأن الله يقول لهم :أنتم الذين كنتم غارقين في هذا الاستعجال، فذوقوا الآن ما كنتم به تستهزئون، كما أن (الباء) عملت على تقوّية العلاقة النفسية بين الفاعل (هم) والمفعول به (العذاب)، فجعلت الاستعجال جزءا من تفكيرهم وسلوكهم اليومي، ومع أن الفعل "تستعجلون" قد يُعدّى بنفسه (تستعجلون العذاب)، لكن لما كان الغرض ليس الإخبار عن مجرد الاستعجال عُدِّي هنا بـ"الباء للدلالة على معنى زائد، وهو الانغماس في الفعل والالتصاق به، ولو عبر بـ(من) فقيل" :كنتم من العذاب تستعجلون"، لفُهم أن استعجالهم انطلق من العذاب أو كان جزئيًا أو عارضًا، وهذا لا يُناسب شدة التوبيخ ولا التلبس بالاستهزاء الذي كان واقعًا منهم، فإذا كانت (الباء) تُوحي بـ الاندماج في الفعل، والتمادي في الاستهزاء، فإن (من) تدل على الابتداء والانفصال، كما أن (من) لا تُوحي بأنهم غارقون فيه أو متلبسون به، بل قد تُفهم على أنها طلب عارض أو خارجي، وهذا يضعف الإحساس بـ التمادي والاستهزاء، ويخفف من حدة التوبيخ، وعليه فإن القول بأن (الباء) هنا إنما هي بمعنى (من) يُضعف المعنى البلاغي، ويُفقد الجملة حدة التوبيخ، وعمق التلبس، وقوة المفارقة بين حال الكفار قبل العذاب وبعده.

نيابة (الباء) عن (إلى) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾" سورة البقرة من الآية: (٨٣)

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾"

رأي أبي حيان: يرى الإمام أن (الباء) هناء ترادف (إلى) فيقول: "أحسنت به وإليه بمعنى واحد وجعل معنى (وبالوالدين إحسانا) الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما وإكرامهما" (١).

التوجيه البلاغي:

هذه الآية وما شابهها تحمل دعوة قوية إلى البر بالوالدين وتأكد على عظم مكانتهما؛ إذ إن لهما من الحقوق ما ليس لغيرهما، ولما كان حقهما على الإنسان من الأمور التي لا يعادلها شيء بعد عبادة الله؛ لذا فقد جاء الأمر بالإحسان إليهما مباشرة بعد الأمر بعبادة الله وحده وعدم الشرك به، ولما كان الإحسان الحقيقي لهما لا يمكن أن يكون متقطعًا أو موسميًا يحدث في فترة معينة بل لابد أن يكون سلوكًا ثابتا ومنهج حياة يعكس العرفان بالجميل والتقدير لمن كان سببًا في وجودك ورعايتك؛ فقد عبر النظم الحكيم عنه بما يدل على طبيعة هذا الحق فاستعمل (الباء) الدالة على الالتصاق؛ ليفيد أن هذا الحق لابد أن يكون ملاصقا لهما في كل مراحل الحياة بل بعد موتهما، إذ إن الإحسان إليهما لا يكون مجرد عمل عابر موجه نحوهما، بل هو منهج شامل، ومصاحبه دائمة للوالدين في جميع الأفعال والأحوال حتى يكون ملتصقا بذاتهم في كل الأوقات والظروف، ويصير جزءا لا يتجزأ من التعامل معهما في كل جوانب الحياة، ولو قيل: (وإلى الوالدين إحسانًا)، مستخدما (إلى) التي تدل على انتهاء الغاية لدل على أن الغاية هي مجرد إيصال الإحسان إليهم، فإن وصل مرة انتهى معه الحق، وهذا المعنى أضيق بكثير من المعنى المقصود في هذه الآية العظيمة ولا يدل على الحق الذي قضى الله به للوالدين، وعلى هذا فإن القول بأن (الباء) هنا بمعنى (إلى) إنما هو تضيع لمراد النظم وبلاغة السياق.

(١) يراجع البحر المحيط: ٤٥٧/١، ٤٤٥٨.

الشاهد الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٨١.

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾

رأي أبي حيان: يرى الإمام أن (الباء) هنا بمعنى (إلى) حيث يقول: وَمِمَّنْ دَلَالَةٌ عَلَى التَّبْعِيضِ وَأَنَّ الْمُعْظَمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَيْسُوا هُدَاةً إِلَى الْحَقِّ [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في سياق الحديث عن المقابلة بين طريقين الطريق الأول: طريق الضلال والغفلة الذي يؤدي إلى جهنم، والطريق الثاني: طريق الهداية والعدل الذي يؤدي إلى مرضاة الله والجنة، فالطريق الأول صارت فيه طائفة كبيرة من الجن والإنس تعطلت حواسهم عن وظيفتها الحقيقية حتى صار لهم قلوب لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، فهم في غفلة عن آيات الله وعن الحق، وقابل هذه الطائفة بطائفة أخرى جعلهم الله " أئمة الهدى وأعلام الدين وسادة الخلق بهم يهتدون في الذهاب إلى الله"[٢]، وقد صاغ النظم صفات الفريق الثاني في قالب تعبيري يكشف عن المنهج الذي سلكته تلك الفئة حتى صارت هي الفئة الممثلة للحق وأهله فعبر عن أهم ما يميزهم من أفعال عن غيرهم من الفئة الضالة، بكونهم ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾، و صاغ أفعالهم في صورة الفعل المضارع، (يهدون) و(يعدلون)؛ ليدل على أن هذه الأفعال تقع منهم وقوعا مستمرا ومتجددا، جيلاً بعد جيل حتى عرفوا بها وصارت سمتا لهم ومنهج حياة يعيشون به، وقد ناسب ذلك استعمال (الباء) في بالحق؛ ليدل على أن هدايتهم لأنفسهم ولغيرهم إنما كانت ملاصقة للحق و قائمة عليه ومطابقة له، ولم تكن هدايتهم عشوائية أو مرتجلة أو مجرد قول أو دعوة، بل هي هداية

---

(١) البحر المحيط:٥/ ٢٣٢

(٢) مفاتيح الغيب: ٦٣/٧.

قائمة على أساس متين وهو الحق الذي يوجههم ويقودهم في كل خطواتهم ويغلف هدايتهم من كل جانب، فاستخدام (الباء) بدلالتها على الإلصاق في "يهدون بالحق" أشد مبالغة في معنى الفعل؛ لأنه يصور للمتلقي طبيعة هدايتهم ومصدرها ومنهجها، ويؤكد أنها هداية قائمة على الحق المطلق الذي هو أساس كل خير وصلاح؛ لأن الحق صار لديهم سجية وركيزة اعتمدوا عليه في كل شؤونهم حتى صار جزءا من أفعالهم وتصرفاتهم وأصبح ملازمًا لهم في هدايتهم، لا ينفصل عنه، ولا يخرجون عن مقتضياته، والقول بأن (الباء) بمعنى (إلى) في هذا السياق لا يتناسب مع هذه المعاني وإنما يقصر المعنى على أن الحق غاية مطلوبة لديهم دون أن يكون الحق ملازما لهم ولا منهجا واضحا في طريقهم لهداية أنفسهم أو غيرهم، كما أن (يهدون بالحق) أوسع في المعنى وأعم وأعمق في الدلالة من (يهدون إلى الحق)؛ لأن كل من "يهدي بالحق" هو بالضرورة "يهدي إلى الحق"، ولكن ليس كل من "يهدي إلى الحق" بالضرورة "يهدي بالحق" بشكل كامل في جميع جوانب حياته أو عمله، ومن هنا فإن القول بأن القطع بأن (الباء) هنا إنما بمعنى(إلى) يضعف بلاغة النظم، ولا يفي بمقصد السياق.

نيابة (الباء) عن (على) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ سورة البقرة من الآية: ١٣٧.

موطن الشاهد: الباء في (بِمِثْلِ)

رأي أبي حيان: نقل القول بكون (الباء) في (بِمِثْلِ) بمعنى (على) فقال: ليست بزائدة، وهي بمعنى (على)، أي: فإن آمنوا على مثل ما آمنتم به، وكون (الباء) بمعنى (على)، قد قيل به، وممن قال به ابن مالك [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد القرآني في سياق الرد الحاسم على ادعاء اليهود والنصارى بحصر الهداية في اتباع ملتهم الخاصة وذلك فيما حكاه القرآن عنهم في قوله : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ سورة البقرة من الآية (١٣٥)، فأتى الأمر من الله بأن نبين لهم الصواب ونصحح لهم المفاهيم، وذلك في قوله: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ...) سورة البقرة من الآية (١٣٥، ١٣٦)، ثم بين النظم الحكيم الحد الذي إن وصلوا إليه، والعلامة التي إن ظهرت عليهم عرفنا أنهم قد ردوا عن ضلالهم وحصل الإيمان في قلوبهم، وقد حرص النظم على أن يوضح لهم هذا الحد وضوحا لا يقبل جدالا ولا مساومة فقال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ سورة البقرة من الآية (١٣٦)، واختلف العلماء في المقصود بـ(مثل) وأقرب تلك الأقوال للسياق، هو قول الفخر الرازي "فإن صاروا مؤمنين بمثل ما به صرتم مؤمنين فقد اهتدوا"[٢]، ولما أراد النظم من أهل الكتاب أن يكون إيمانهم مطابقا لما عليه أهل الإيمان مطابقة تامة بحيث لا يختلفوا عنهم في أصل ولا فرع ولا يحيدون عما أمر الله به دون تحريف بنقص أو زيادة خصوصا أن مزاعم أهل الكتاب في هذا الشأن وحججهم ستكون كثيرة إذ يدعون أنهم مؤمنون ويعبدون

---

(١) البحر المحيط: ٦٥٢/١

(٢) مفاتيح الغيب: ٧٣/٤.

الله، وسيدعون أن الشرائع السماوية بينها كثير من التوافق إلى غير ذلك من ادعاءاتهم، فأتى النظم بما يغلق عليهم كل هذه الأبواب ويقطع أمامهم طريق الجدل ويوضح لهم أن الطريق الموصل للهداية ليس بما في شرائعهم ولا ما هم عليه، بل الطريق الحق الموصل للهداية هو الامتثال الكامل لما عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن آمن به والالتزام بكل التفاصيل التي يؤمن بها المسلمون، وقد استخدم النظم حرف (الباء)، الذي أعطى للدلالة عمقا وشمولا بما يدل عليه من معنى الإلصاق، ولو حذفت (الباء)، وقيل: (فَإِنْ آمَنُوا مِثْلِ إيمانكم)، لكان المعنى المفهوم أنهم يؤمنون بشيء يشابه إيمانكم ولا يشترط أن يطابقه، لكن دخول (الباء) على "مِثْلِ" يجعل المعنى" :فإن آمنوا إيمانًا ملتصقًا ومطابقًا ومشابهًا تمامًا للذي آمنتم به، فالباء بما تدل عليه من معنى الإلصاق أوجدت في السياق دقة في المطابقة والإلصاق أي أن إيمانهم يجب أن يكون ملتصقًا بإيمان المؤمنين التصاقًا تامًا لا انفصال فيه، وليس مجرد مشابهة من بعيد، فهو إيمان بالكل لا بالجزء، وبالأصول والفروع على حد سواء، وهذا المعنى يعمل على تأكيد وحدانية مصدر الهداية، كما أن (الباء) في "بمثل" تؤكد أن هذا الإيمان هو وحدة متكاملة، لا يمكن تجزئتها أو الإيمان ببعضها والكفر ببعض، وتأمل لو حملت معنى (الباء) على معنى (على) لضاعت الدقة البلاغية، وانهدم المقصد الأسمى للنظم، فـ "على" تفيد الاستعلاء والفوقية، وقد تفيد الإلزام، لكنها لا تحمل معنى المطابقة والالتصاق الدقيق الذي تحمله (الباء)، فقول: "آمن على مثل" قد يُفهم منه أنه إيمان فوق إيمان، أو إيمان مبني عليه، ولكنه لا يعطي نفس الدلالة على التطابق التام والمماثلة الكاملة في طبيعة الإيمان نفسه، فـ(الباء) بمعناها الأصلي الدال على الملاصقة أدق في تصوير حقيقة الإيمان المطلوب منهم، وعلى ذلك فإن (الباء) في "بمثل" لم تكن مجرد حرف جر، بل كانت أداة بلاغية دقيقة حملت معنى الإلصاق والمطابقة التامة، ونفت وجود أي إيمان صحيح آخر، وقدمت ردًا مفحمًا على مزاعم أهل الكتاب، ووضعت ميزانًا واضحًا للهداية لا يقبل التأويل أو التجزئة.

الشاهد الثاني

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ سورة البقرة من الآية (٢٨٦).

موطن الشاهد: (الباء) في قوله: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾

رأي أبي حيان: يرى أن (الباء) هنا بمعنى (على) فيقول: (يعني بما لا طاقة، ما لا قدرة لهم عليه البتة) ... المعنى لا تحملنا حملا يثقل علينا أداؤه. (١)

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد القرآني في موضع يُعد من أهم المواضع الجامعة للدعاء والتضرع والخضوع؛ لهذا تجد أن هذا الموضع قد شيد بناؤه على أدوات تعبيرية تصور أسمى معاني الإلحاح وقمة التضرع البشري أمام القدرة الإلهية وتكشف للمتلقي عن الحالة النفسية التي يكون فيها العبد المنكسر بين يدي ربه، ويظهر ذلك جليا في تكرار النداء ثلاث مرات بقولهم (ربنا) وهذا الإلحاح في النداء يعكس شدة توسل العبد وعمق شعوره بالضعف أمام خالقه، ويصور ما ألم به من انكسار جعله يلح في الطلب المصدر بالنداء والدال على قوة العلاقة بين العبد وربه، حيث عرف العبد وتيقن أنه لا ملجأ إلا إليه، ثم تأمل التعبير بقوله:(وَلَا تُحَمِّلْنَا)"وبناءها على صيغة التفعيل التي تدل على الشدة والتكثيف، وتظهر مدى ما يعانيه العبد من ضغوطات وأثقال لا طاقة له بها، وقوله: ﴿ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يدل على أقصى درجات العجز والانكسار، ويُظهر الحاجة إلى اللطف الإلهي، وفي التعبير بـ "ما" الموصولية ما يدل على العموم، أي: لا تحملنا أي شيء لا نطيقه، فهي تربط الدعاء بكل ما يمكن أن يُثقل كاهل الإنسان، وتأتي (الباء) هنا متناغمة مع دلالات الخضوع المطلق والتسليم التام لله –سبحانه وتعالى–، كما أنها تتسق مع الدلالات النفسية للآية، حيث تُظهر العبد مستغرقًا في ضعفه، و تجعل الدعاء موجها لكل ما لا يطاق من ثقل سواء أكان مرجعه إلى الضعف الذاتي، أو إلى عوامل خارجية؛ وذلك لأن "به" تُوحي بأن الدعاء بطلب رفع الحمل الوارد في

---

(١) البحر المحيط: ٧٦٦/٢

صورة النهي إنما هو موجه إلى الحمل المقترن بالإنسان والملاصق له فـ(الباء) بما تدل عليه من إلصاق أظهرت شدة المعاناة، وبينت أن الحمل من شدته أصبح ملازما للإنسان وملاصقا له و متصلا به اتصالًا مباشرًا، وكأنه داخل في كيانه مغلوب عليه حتى صار مشتبكا معه في صراع دائم لا يطاق ولا يملك دفعه عن نفسه، فهو ليس مجرد شيء مفروض عليه من الخارج، بل هو مقترن به وملازم له لا يستطيع الانفكاك عنه، مما يُعزز الإحساس بالضعف والانكسار و يزيد من إحساس القارئ بثقل هذا الحمل، ويتكشف أمامه دواعي الإلحاح والتضرع من العبد لربه، ولو أتى التعبير بـ(على) التي تفيد الاستعلاء، أو قصر عطاء (الباء) على معنى (على) كما ذهب الإمام أبو حيان؛ لفقد السياق كثيرا من دقته التصويرية، وإيحاءاته النفسية؛ لأن دلالة السياق مع (على) كانت ستقف عند الحمل الواقع على الإنسان من عوامل خارجية الذي لا يصل إلى حد الملازمة والإلصاق، و لصورت الحمل كأنه موضوع فوق الإنسان فحسب و لم يبلغ حد الملازمة، مما يُضعف الإحساس بالاستغاثة التي اشتمل عليها ظل السياق مع دلالة الإلصاق، كما أن التعبير بـ(على) أو قصر المعنى على دلالتها من شأنه أن يؤدي إلى ضعف الانسجام مع سياق الدعاء؛ لأن الآية في سياق تضرع وخضوع، و"الباء" تُناسب هذا السياق لأنها تُظهر أن العبد مغلوب على أمره، أما (على) فتناسب سياقات التكليف أو المسؤولية أكثر من مناسبتها لسياق الاستغاثة والرجاء، كما أن استبدال "الباء" بـ"على" أو التسليم المطلق بأن (الباء) هنا بمعنى (على) جدير بأن يُفقد الآية جزءًا من جمالها البياني، ويُضعف التأثير العاطفي في نفس القارئ؛ لأنه سيخفف من إحساس المتلقي بالمعاناة التي التصقت بالعبد المتضرع ويجعل الحمل يبدو أقل التصاقًا بالإنسان، أما (الباء) فتُشعر القارئ بأن الحمل لا يُحتمل ولا يُفارق الإنسان، مما يُعزز الخشوع والتأثر، بالإضافة إلى ما سبق فإن التعبير بـ(على) من شأنه أيضا أن يقيد المعنى ويغلق باب التأويلات البلاغية فهو أضيق دلالة من (الباء) التي أدى التعبير بها إلى اتساع المعنى وجعله يتضمن أكثر من دلالة، وفتح المجال أمام تأويلات متعددة، مما يُثري التفسير ويُعمّق الفهم.

الشاهد الثالث

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ...﴾ سورة النساء من الآية: ٤٢.

موطن الشاهد: (الباء) في قوله: ﴿ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ ... ﴾

رأي الإمام أبي حيان: ذهب الإمام إلى أن الْبَاء هنا بِمَعْنَى (عَلَى) [١]

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في حديث القرآن عن مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث قدم لنا صورة حية لندم الكافرين والعاصين يوم القيامة، وتتجلى جماليات النظم في التصوير الحسي العميق الذي صور لنا في كلمات قليلة وتعبير موجز مكثف حال شخص يتمنى بكل جوارحه أن تنشق الأرض وتبتلعه؛ ليختفي تمامًا ولا يواجه عذاب الله، وهذا التصوير يلامس المشاعر بقوة، وينقل للمتلقي مدى الرعب والفزع الذي سيشعر به هؤلاء في ذلك اليوم، في قالب بليغ تجد مع كل كلمة من كلماته أثر الهول والفزع والحسرة والندامة مما يزيد من قوة المشهد، فكلمة "يَوَدُّ" تحمل معنى التمني الشديد والملح، واستخدام الفعل ("تُسَوَّى") بصيغة المبني لما لم يسم فاعله يزيد من عمومية وشمولية الرغبة، حيث يتمنون أن يقع بهم هذا الفعل على أي حال ومن أي جهة، مع التركيز على الحدث ووقوعه وهو تسوية الأرض بهم وإهلاكهم دون المبالاة بمن سيقوم به مما يعكس مدى الهول والعذاب الذي سيلاقونه يوم القيامة، ويأتي حرف الجر (الباء) متناغما مع تلك الدلالات التي تشع من السياق حيث جعلت المعنى يتسع لكيفيات مختلفة لتلك التسوية وهذا هو مبتغاهم، فالقرآن يكشف عن شدة الفزع الذي ألم بهم حينما عاينوا أهوال الموقف وشاهدوا جانبا مما أعده الله لهم، وهذا جعلهم يتمنون الزوال بأي وسيلة كأن "يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، أو يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، أو يودون أن لو صاروا ترابا كالبهائم"[٢]، ولم تقف دلالات التعبير بـ(الباء) عند حد اتساع المعنى بل تعداه

---

(١) البحر المحيط: ٣/ ٦٤٥

(٢) يراجع مفاتيح الغيب: ١٠/ ٨٤ بتصرف

ليشارك في إظهار رغبتهم في المبالغة في إخفاء أثرهم وإحكام تسويتهم حتى لا يرجى منهم خروجا أو ظهورا وهذا أفادته (الباء) بما دلت عليه في السياق ونشرته في الصورة من معنى الالتصاق فهم يتمنون أن تلتصق بهم الأرض التصاقا شديدا فتستوعبهم حتى يصيروا والأرض شيئا واحدا وكأنهم أصبحوا جزءًا منها، واندمجوا فيها حتى يختفوا تمامًا فلا يرجى لهم خروج، فهؤلاء لا يتمنون دفنًا عاديًا، بل يتمنون تسوية كاملة للأرض بهم وكأنهم لم يكونوا موجودين، وهذا لا يكون إلا إذا "غيبتهم الأرض واستوت بهم، ولم يبق فيها شيء من عوج ولا نتوّ بسبب أحد منهم ولا شيء من أجسامهم"(١)، إنه تعبر عن فناء واستئصال تام و صورة للهلاك الشامل، والالتصاق القوي، والاستيعاب الكامل للأرض لهم، ولو أن النظم الكريم استعمل (على) بدلا من (الباء) أو لو سلمنا أن (الباء) هنا إنما هي بمعنى (على) كما ذهب الإمام أبو حيان لتوقف المعنى عند مجرد اعتلاء الأرض بهم مستوية فوقهم؛ لتغطيتهم دون اندماج كامل ولا زوال أثر مع إمكانية بقائهم وهي أقل قوة وشمولية في الدلالة على الهلاك من استخدام (الباء) بدلالتها على الإلصاق، إذ إن الباء جعلتهم والأرض سواء حتى صاروا جزءا من ترابها، ومن خلال ما سبق يتبين أن القول بالنيابة في الحرف أضاع الفائدة التي من أجلها عبر النظم بـ (الباء) في هذا الموضع إذ إن معنى (على) لا يؤدي الغرض المراد ولا يعبر عن المعنى المطلوب بل إن التعبير بها أو القول بأن (الباء) إنما تحمل معناها يضيع عنصر المبالغة والتهويل الذي نثره حرف (الباء) على السياق، ويجعل الصورة تفقد أهم عنصرها وهو هول الفزع الشديد الذي حل بهم والخوف الذي تملك منهم عندما يتكشف لهم ما ينتظرهم من سوء العذاب ويجعلهم يتمنون أن يكونوا ترابا يلتصق ويندمج بتراب الأرض حتى يصيروا جزءا منها فيزول أي أثر يدل عليهم، وهذا المعنى لا يؤدى إلا بدلالة (الباء) الأصلية .

(١) نظم الدرر: ٥/٢٨٤

نيابة (الباء) عن (اللام) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول:

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة يونس من الآية: (٥).

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿بالحق﴾

رأي أبي حيان: ذكر أن (الباء) هنا قد تكون بمعنى التلبس وقد تكون بمعنى (اللام) دون أن يختار أو يرجح، فيقول: " ومعنى بالحق متلبسا بالحق... وقيل: (الباء) بمعنى (اللام)، أي للحق"(١)، ولم يصرح بمعناها الأصلي وهو الإلصاق.

التوجيه البلاغي:

يأتي هذا الشاهد القرآني في سياق عرض الآيات الكونية الدالة على عظمة الله ووحدانيته وكمال علمه وقدرته، حيث يقول سبحانه وتعالى :﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ سورة يونس الآية:(٥)، فالسياق يعتنى بإظهار الأدلة وتقديم البراهين من خلال مظاهر الكون المشاهدة، وهنا تبرز أهمية (الباء) بدلالة المعنى الأصلي لها وهو الإلصاق، حيث أكدت أن هذه المخلوقات (الشمس، القمر، الليل، النهار) ليست مجرد ظواهر طبيعية صماء بل هي آيات تحمل في طياتها "الحق"، فجاءت "الباء" لتؤكد أن هذا الخلق ملاصق ومصاحب للحق لا ينفك عنه، فالحق ليس شيئًا خارجًا عن الخلق أو غاية بعيدة، بل هو صفة ذاتية في كل جزء من أجزاء الكون، فكما أن الضياء ملازم للشمس والنور ملازم للقمر، فالحق ملازم للخلق ملاصق له، ولاحظ دقة التعبير القرآني حيث أتى بهذه الحقيقة في صورة القصر الذي طريقه النفي والاستثناء، وهو يعد من أقوى أساليب القصر، فدخول "الباء" على "الحق" في هذا السياق (ما خلق... إلا بالحق) يقصر صفة الخلق على ملاصقة الحق، وينفي عنه ملاصقة أي شيء آخر كالباطل أو العبث، فهذا التركيب

(١) البحر المحيط: ٦/ ١٥.

يمنح المعنى قوة وتوكيدًا لا نظير لهما، كما أن المعنى الذي أفادته (الباء) يتناسب مع ختام الآية الذي يدعو إلى التفكر والتدبر ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ سورة يونس، من الآية(٥)، فهذا التفكير لا يؤتي ثماره إلا إذا أيقن المتفكر أن ما ينظر فيه ليس عبثًا، فـ"الباء" هنا بدلالتها على الملاصقة تقطع الطريق على أي تصور بالعبثية أو الصدفة، فمعنى "خلقها بالحق" أي خلقها خلقًا مصاحبًا للحكمة والغاية والإتقان، ومُنزّهًا عن الباطل واللهو، وهذا أنسب ما يكون في سياق إقامة الحجة على من يعرضون عن آيات الله، وإذا كان هذا المعنى يتناسب مع قول أبي حيان بأن (الباء) هنا بمعنى الملابسة، لكنه لا يتوافق مع القول بأن (الباء) هنا بمعنى (اللام)؛ وعليه فإن فهم السياق على كون (الباء) بمعنى الإلصاق أبلغ وأرجح، لأن القول بأن (الباء) بمعنى (اللام) يظهر الحق كغاية مؤجلة لا حقيقة قائمة ويجعل المعنى أن الغاية النهائية من الخلق هي "الحق"، وهذا وإن كان صحيحا لكنه يوحي بأن الحق هدف مستقبلي قد لا يكون متحققًا الآن وهذا من شأنه أن يخفت الدلالة، أو يغاير مقصد السياق، أما دلالة الملاصقة فإنها تفيد أن الحق حقيقة حالية قائمة متجلية في كل لحظة في نظام الكون، وهذا يجعل الآيات الكونية حجة حاضرة ومُلزمة للمخاطب في كل وقت، فالحق ليس غاية بعيدة أو هدفًا منفصلًا يُسعى إليه، بل هو صفة ملازمة للخلق منذ لحظة إيجاده، فكل ذرة في هذا الكون ناطقة بالحق، وكل قانون فيه قائم بالحق.

نيابة (الباء) عن (عن) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.

الشاهد الأول

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ سورة الأنعام من الآية: [١]

موطن الشاهد: الباء في قوله: ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

رأي أبي حيان: يرى أن (الباء) هنا بمعنى (عن) فيقول:" و(الباء) في (بربهم) يحتمل أن تتعلق بـ(يعدلون) وتكون (الباء) بمعنى (عن) أي: يعدلون عنه إلى غيره مما لا يخلق ولا يقدر [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذه الشاهد القرآني في بداية سورة الأنعام، وهي سورة مكية تركز على إثبات وحدانية الله وقدرته وبطلان الشرك، وقد بنى السياق هنا على حجة دامغة تضعنا أمام عظمة مطلقة وحقائق كونية لا ينكرها عاقل، وتدل على تفرد الله بالخلق والتدبير وأنه هو المستحق وحده للحمد والعبادة ثم أتى قوله: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ كاشفا عن التناقض الصارخ لدى الكافرين الذين يسوون هذا الخالق العظيم بمخلوقات لا تملك شيئًا، ولما كان هذا الأمر مستهجنًا ومستنكرًا إلى أقصى حد لما فيه من تناقض بين ما أنعم الله به على عباده وبين فعل العباد وشركهم بالله، فقد ختمت الآية بقالب تعبيري يكشف عن هذا الاستهجان، وقد وظف النظم لذلك عددا من الأدوات التي تتضافر معا؛ لتبني صرحًا من المعاني البلاغية التي تهز الوجدان وتخاطب العقل بأعمق الصور وأبلغها وترسم صورة متكاملة وقوية لهذا الجحود الإنساني في أقصى درجاته، ومن هذه الأدوات استخدام (ثم) الدالة على الترتيب مع التراخي، واستخدامها هنا يتجاوز مجرد التراخي الزمني إلى ما هو أبلغ وأعمق وهو التراخي الرُّتبي أو المعنوي؛ لتوحي بوجود فترة طويلة مليئة بالنعم الإلهية المتتابعة، هذا الامتداد الزمني والمعنوي للنعم يجعل الكفر الذي يأتي بعده أشد قبحًا وجحودًا، وهذا يكشف للمتلقي مدى غرابة الفعل واستبعاده، وأن هذا الفعل الذي صدر منهم ما

(١) البحر المحيط: ٤/ ٤٣٠

كان يجب أن يكون، كما وضعت (ثم) هنا مسافة هائلة بين المقدمات (خلق الله للسماوات والأرض والنور) والنتيجة (كفرهم وعدلهم بالله غيره) مما يولد شعورًا بالدهشة والتعجب لدى السامع، فالتراخي ليس زمنيًا فحسب بل هو تراخٍ في الرتبة بين الحق الواضح والباطل السقيم، فهي لا تربط الأحداث ربطًا زمنيًا بسيطًا بل تربطها ربطًا بلاغيًا يُبرز التباعد الشديد بين عظمة الفعل الإلهي وحقارة رد الفعل الإنساني، مما يجعل إصرارهم على الكفر أمرًا يدعو للعجب الشديد والاستنكار، ويأتي التعبير بالاسم الموصول في (الذين كفروا)؛ لتحديد هوية الفاعل والتشنيع والتسجيل عليهم، فالاسم الموصول يربطهم مباشرةً بالصفة المذكورة في جملة الصلة فكأنما أصبحت هذه الصفة هي هويتهم وعلامتهم الفارقة التي يُعرفون ويتميزون بها، كما أن استخدام "الذين" يجعل الحكم عامًا لكل من ينطبق عليه هذا الوصف (الكفر) في كل زمان ومكان، مما يعطي الآية بُعدًا عالميًا خالدًا، تم تأتي (الباء) بما تدل عليه من معنى الإلصاق؛ لتكشف عن طبيعة الجريمة نفسها بأبشع صورها، وتوضح أن جريمتهم ليست مجرد انحراف بل هي فعلٌ بلغ الغاية في القبح؛ لأنهم يُلصقون آلهتهم الباطلة بمقام الربوبية، ويجعلونها عديلاً ونظيرًا للخالق العظيم، فـ(الباء) هنا تعد ذروة المشهد حيث تصور للمتلقي ذلك الفعل الشنيع، فعل "اللصق" الذي يطمس الفوارق ويمحو المسافات بين الخالق والمخلوق في معتقدهم السقيم، كما أن (الباء) هنا تمثل الرابط الدلالي الذي يربط بين عظمة الله و وحدانيته التي عرضتها بداية الآية، وبين شناعة فعل المشركين الذين يتجاهلون هذه العظمة ليسوّوا به غيره، ولو سلمنا بأن (الباء) هنا بمعنى (عن) كما ذهب الإمام أبو حيان لكان المعنى أنهم انحرفوا عن ربهم فحسب، وهذا المعنى وإن كان صحيحا لكنه خلا من عمق ودقة المعنى الذي أراده السياق، وإلا لماذا لم يعبر النظم الحكيم بـ(عن)، دون (الباء)؟ إلا لما تحمله (الباء) من دلالات لا توجد مع (عن) والتي منها أن (الباء) في "بربهم يعدلون" ينقل المعنى من مجرد الانحراف إلى الإلصاق، فكأن الكافرين يأتون بآلهتهم الباطلة ويلصقونها عنوةً بمقام الربوبية والألوهية، وهو مقامٌ منزهٌ عن أن

يلتصق به أي شريك، وهذه الصورة الذهنية تجعل فعلهم أشد قبحًا، فهم لا يكتفون بالمساواة بل يصرون على هذا الفعل إصرارا شديدا وقد أدت (البـــاء) بـــدلالتها على الإلصاق دورا كبيرا في بيان هذا الإصرار حيث أتت (الباء) داخلـــة علـــى "رَبّ" المضاف إلى الضمير "هم" وهذا الأمر له دلالة عميقة حيـــث كشـــف عـــن إقرارهم بأن الله هو ربهم الذي خلقهم ورزقهم، وعلى الرغم من هذا الاعتـــراف فهم يقومون بهذا الفعل الشنيع و(الباء) هنا هي التي تربط بين إقرارهم الضمني بالربوبية وفعلهم العملي بالشرك، مما يجعل جريمتهم أشد قبحًا؛ فهي ليست كفـــر إنكار، بل كفر جحود وإشراك مع الاعتراف بالأصل، ومن خلال هـــذا التوظيـــف للدلالة الأصلية لحرف الجر (الباء) في الخطاب القرآني؛ يتبين أن استخدامه بتلك الدلالة كان أكثر تناسبا مع مضمون الخطاب القرآني ومراد السياق، وأن القول بأن (الباء) هنا قد خلعت معنى الإلصاق وفارقته وتوشحت بمعنى (عـــن) يهـــدم قصدية النظم ويضعف بلاغة المعنى، ويضيع مراد النظم وما يهدف اليه .

الشاهد الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ سورة الفرقان من الآية: (٢٥)

موطن الشاهد: (الباء) في ﴿ بِالْغَمَامِ﴾

رأي أبي حيان: ذكر أن (الباء) هنا قد تكون للحال: أي متغيمة، أو تكون للسببية: أي بسبب طلوع الغمام منه، أو تكون بمعنى (عن): أي انشق عنه[1]، ومقتضى كلامه أن لكل من الحالية والسببية، والمجاوزة وجها في الآية، إلا أنه لم يذكر للإلصاق وجها، ولكن ما لم يتعرض له أبو حيان هو لماذا أوثر حرف (الباء) الدال على الإلصاق للتعبير به في هذا السياق؟

التوجيه البلاغي:

أتي التعبير بـ "بالغمام" في سياق وصف أهوال يوم القيامة، وهذا السياق يُفصح عن الدلالة المقصودة من (الباء)؛ لأن هذا السياق يتطلب تصويرًا للعظمة والرهبة والترابط بين الأحداث الكونية، و"الباء" هنا تخدم هذا السياق من خلال دلالاتها الأصلية وهي الإلصاق، تلك الدلالة التي رسمت صورة حية ومترابطة لأحداث يوم القيامة وكشفت عن الترابط الوثيق بين الظواهر الكونية في ذلك اليوم العظيم، مؤكدة على عظمة الخالق وهول المشهد، حيث أفادت تلك الدلالة أن تشقق السماء ليس حدثًا منفصلًا عن ظهور الغمام، بل هما متلازمان ومتلاصقان، كما أنها تصور المشهد وكأن السماء تتفاعل مع الغمام وتتشقق وسط سحب كثيفة عظيمة بطريقة غير مألوفة، وتجعل الغمام جزءا من عملية التشقق نفسها، أو أنه يظهر من خلالها، فليس مجرد انفصال بل هو تفاعل عميق، وهذا الترابط يضفي على المشهد رهبة وجلالًا ويزيد من هول المشهد، ويصور العظمة والقدرة الإلهية، ويضفي على المشهد كثافة وهولًا، فاستخدام "الباء" بدلالتها على الملاصقة يوحي بأن الغمام ليس مجرد سحاب عابر أو منفصل عن السماء، بل هو غمام ذو طبيعة خاصة، حاضر في لحظة التشقق يشارك في حدث كوني عظيم

(١) البحر المحيط: ١٢١/٨

وهذا يعكس قدرة الله المطلقة في إحداث هذه التغيرات الكونية الهائلة ويُضفي حيوية وزمنية على الصورة ويساهم في تهويل المشهد، فالسماء التي نعرفها تتشقق، وهذا التشقق يكون مصحوبًا بظهور الغمام، مما يثير الدهشة والخوف في النفوس، ويتناسب وطبيعة يوم القيامة الذي هو يوم عظيم وشديد.

ومن الملاحظ أن كل المعاني التي ذكرها أبو حيان لـ(لباء) في هذه الآية لا تتحقق معها تلك الدلالات ولا تصل إلى تلك المقاصد، والأعجب أن أبا حيان قد ترك المعنى الأصلي لـ(لباء) ولم يذكره هنا مع أن كل هذه الدلالات وغيرها تحققت عن طريق دلالة الحرف على معنى الإلصاق.

الشاهد الثالث

قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ سورة الفرقان من الآية: (٥٩)

موطن الشاهد: الباء في ﴿ بِهِ خَبِيرًا ﴾

رأي أبي حيان ذكر ابو حيان أن من معاني (الباء) هنا (عن) فقال: ويجوز أن تكون (الباء) بمعنى (عن)، أي فسئل عنه خبيرا [١].

التوجيه البلاغي:

تُعد سورة الفرقان من مكيّات القرآن الكريم التي تُجلّي ببيانها الساحر وحدانية الخالق، وعظيم قدرته في نسج الوجود وتدبير شؤونه، ويأتي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] في سياق الحديث عن صفات الله تعالى؛ ليبرز جانبًا من جوانب عظمة الخالق، وبيان قدرته المطلقة، وعلمه المحيط بكل ما في هذا الكون الفسيح، وقد ختمت الآية بقوله: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾" لتفصح عن حقيقة جلية وهي أن السؤال عن هذه الأمور العظيمة ليس سؤالاً عابرًا عن معلومة يسيرة، بل هو استفسار عن حقيقة هذا الوجود و أسرار هذا الخلق العظيم الذي لا يحيط به إلا من أبدعه بما يحتويه من أجرام عظام وضعت على نمطٍ فائق ونَّسق رائق بتدبيرٍ متينٍ وترتيبٍ رصينٍ في أوقاتٍ معيَّنة لحكمٍ جليلةٍ وغاياتٍ جميلةٍ لا تقف على تفاصيلِها العقولُ[٢]؛ لهذا فمن أراد أن يسأل عن حقيقة تلك الأمور وتفاصيلها... فليسأل من علمه " محيط بظواهر الأمور وبواطنها"[٣] عالم بأحوالها، وهذا المعنى قد عبر عنه النظم مستخدما أدوات تعبيرية ذات دقة عالية لبيان مقاصد النظم الحكيم، موظفا أسلوب التدرج للوصول إلى المراد وصولا يكتنفه الإقناع المطلق، فأتى بفعل الأمر(اسأل)؛ ليدل على الإرشاد و التوجيه ويشير إلى الحث الشديد والإلزام حيث يوجه المخاطب

(١) البحر المحيط: ١٢١/٨

(٢) يراجع إرشاد العقل السليم:٢٢٧/٦

(٣) روح المعاني: ٣٨/١٠.

توجيها قاطعا نحو المصدر الصحيح للعلم في الأمور الكبرى ويحثه على البحث عن تلك المعلومات، لكن على من يسأل ويبحث ألا يلجأ إلى أي أحد إذ إن هذه الأسئلة تحتاج إلى خبير، وفي مجيء (خبير) نكرة ما يوحي بالعموم والشمول فكأنّها تفتح الأفق أمام الإنسان ليدرك أنَّ كل من اتصف بالعلم المطلق الشامل في هذا الوجود فهو جدير بالسؤال، أي اسأل كل من تتوافر فيه صفة الخبرة المطلقة بتلك الأمور، كما أنها تفيد التفخيم والتعظيم، وكأنه يقول: "اسأل من بلغ من الخبرة مبلغًا عظيمًا"، فيجعله يبحث عن المصدر الأكمل والأشمل للخبرة، مما يرفع من شأن المسؤول ويجعل المخاطب يتدبر من هو هذا الخبير، ويزداد المعنى عمقاً وجمالاً بإضافة حرف الجر "الباء "في قوله "به " والتي تعد هنا أداة بلاغية دقيقة أضفت بُعدًا دلاليًا مهما في البناء التركيبي الدال على مقصد النظم حيث أدت دورا محوريا في عملية التدرج من الدلالة العامة المفهومة من تنكير (خبيرا) للخاصة المدلول عليها بـ(الباء)، التي تفيد الإلصاق والعناية في الاختيار، حيث أوضحت أنه من الجدير بأن يكون هو المسئول عن تلك الأمور وذلك بما دلت عليه من معنى الإلصاق والمصاحبة هذا المعنى الذي ولد في السياق شرطا ضمنيا يوضح من هو جدير بالسؤال، فكأن الآية تقول: إذا أردت أن تسأل عن هذه الحقائق الكبرى، وعن الأسرار العميقة للكون والخلق، فلا تسأل من الخبراء إلا من كان علمه مطلقاً وشاملاً، ملتصقاً به لا ينفك عنه، وبهذا فإن (الباء) دلت على أن الخبرة المطلوبة ليست عارضة أو مؤقتة بل هي ملازمة وملتصقة بالمسؤول، وليست جزئية أو سطحية بل هي خبرة شاملة ومحيطة بالموضوع من كل جوانبه، خبرة لا تنفك عن صاحبها، وكأن العلم والخبرة جزء لا يتجزأ من ذاته وعلى هذا فإن المخاطب عندما يفكر فيمن تنطبق عليه هذه الصفات: الخبرة المطلقة، العلم الشامل الذي لا ينفك، والملازم لذاته في كل وقت وحين، لن يجد إلا الله –سبحانه وتعالى–، فالله هو الخبير المطلق، العليم بكل شيء، في كل زمان ومكان علمه ليس مكتسبًا أو محدودًا، بل هو جوهري لذاته ولا يمكن لأحد سواه أن يكون "خبيرًا به" بهذه الصورة المطلقة ؛ فـ(الباء) في الآية بدلالاتها على

المصاحبة تشير إلى أنه من يريد أن يسائل عن ذات الله تعالى وصفاته يجب أن يستصحب الله تعالى في طلبه المعرفة عنه، ويسترشد بوحيه للعلم به، فأنه لا يدل على ذاته وصفاته مثله، وهو أعلم بما يخبر به عن نفسه ، فمن طلب معرفة الله تعالى غير مستصحب هديه ضل وغوى"[1]؛ لذا فالتعبير الذي جمع بين دلالات فعل الأمر "اسأل"، وخبيرا"، و"الباء" يقود المخاطب إلى نتيجة واحدة لا محيد عنها بعد تفكر وتدبر وهي أنه لا يمكن أن تنطبق هذه الصفات المطلقة للخبرة والعلم الملازم الذي لا ينفك إلا على الله سبحانه وتعالى، وأن اللجوء المطلق في الأمور التي تتجاوز إدراك البشر يكون إلى الله وحده، فهذا توجيه للإنسان بأن يدرك قصوره المعرفي في بعض الأمور، وأن هناك مصدرًا واحدًا للعلم الكامل الذي لا يخطئ، أما إذا ركن العقل إلى كون (الباء) هنا بمعنى (عن) وسلمنا بذلك لفسد المعنى ولم يحقق النظم مقصده الأسمى لأن المعنى مع (عن) يوحي بأن السؤال عن معلومة محددة أو جانب معين دون أن يكون لظل الملازمة والإلصاق وجود، وعليه فإنه يتساوى من لدية خبرة مطلقة بمن لديه خبرة محدودة، كما أن القول بأن (الباء) هنا بمعنى (عن) يجعل السياق يفقد معنى التوغل والالتصاق بالجوهر والشمول ولا يؤكد على أن المسئول عن مثل هذه الأمور لا بد وأن تكون صفة المعرفة والخبرة صفة لازمة لا تفارقه، وهذا ما لم يقصده السياق ولم يرمي إليه النظم.

(١) ينظر، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم : ٢٠٤.

الشاهد الرابع

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ سورة الحديد من الآية: (١٢)

موطن الشاهد: (الباء) في ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾

رأي أبي حيان ذكر أبو حيان أن (الباء) هنا بمعنى (عن): أي عن أيمانهم [١].

التوجيه البلاغي:

ورد هذا الشاهد في سياق الحديث عن يوم القيامة وما يلاقيه المؤمنون فيه من نعيم، وقد استخدم النظم الحكيم من الأدوات البلاغية ما تُبرز منزلة المؤمنين والمؤمنات من خلال عدة لمسات بلاغية وأدوات تعبيرية تكاملت معا؛ لتصور المشهد على أتم حال ومن ذلك أنه صدر الآية بقوله: ﴿يوم﴾؛ ليُهيّئ المتلقي لمشهد عظيم ومحدد، ويُشير إلى أهمية هذا اليوم وخصوصيته، وكأن الله – تعالى– يدعو العباد ليتخيلوا هذا المشهد ويستحضروه، وفي التعبير بالفعل (ترى) ما يشير إلى استحضار الصورة وفيه دعوة للمتلقي بأن يتخيل ويرى بعين بصيرته ما سيحدث في ذلك اليوم، وهذا يُضفي على الآية حيوية وتأثيرًا مباشرًا في النفس، ويُحفز المتلقي على التدبر والتأمل ، ويثير لديه التشويق والترقب لما سيُشاهد، كما أن فيه دعوة للتأمل في عظمة هذا اليوم وجمال المشهد الذي ينتظر المؤمنين والمؤمنات، كما أنه يحمل دلالة إلى الرؤية البصرية الواضحة، مما يشير إلى أن المشهد هنا ليس مجرد وصف غائب بل هو تصوير لشيء سيُرى بالعين المجردة يوم القيامة، ولما أصبحت الحواس في حالة من التشوق إلى ما ستراه في هذا اليوم المهيب، أتى هذا الشيء في صورة تحمل الحركة فقال:(يَسْعَى نُورُهُمْ) حيث أفادت صيغة المضارع تشخيص الحدث، وهذا التشخيص يتناغم مع دلالة الحركة والنشاط المفهومة من معنى السعي، وفي إسناد السعي إلى النور استعارة مكنية أدت إلى تشخيص النور وجعله كائنا حيا يتحرك بنشاط وحيوية، وأضفت عليه صفة الحياة والديمومة، وهذا كله يجعل المؤمن يشعر

---

(١) البحر المحيط: ١٠/١٠٥

بأن هذا النور ليس ثابتًا جامدًا بل هو دليل حيوي يقوده ويسير معه، وفي إضافة النور في "نورهم" إلى الضمير العائد على المؤمنين والمؤمنات ما يفيد الاختصاص والملكية مما يدل على أن هذا النور ليس نورًا عامًا، بل هو نور خاص بالمؤمنين والمؤمنات، نابع منهم وبسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وهذا يُشير إلى كرامة خاصة لهم وتمييز واضح عن غيرهم في ذلك اليوم، وتأتي (الباء) في قوله تعالى: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ناشرة دلالات خاصة بها، حاملة أوجه بلاغية ومعنوية تُثري المعنى وتُناسب السياق القرآني الكريم، وتتناغم مع تلك الصورة التي تكونت لدى المتلقي، ومن أهم ما دلت عليه هو أن هذا النور ملتصق بالمؤمنين والمؤمنات التصاقا شديدا وملازم لهم لا ينفك عنهم، فالنور ليس مجرد شيء يمر بهم أو يراهم من بعيد، بل هو ملازم لهم، محيط بهم، وكأنه جزء لا يتجزأ منهم، وهذا يدل على شمولية النور لهم من كل جانب، كما أن استخدام (الباء) بدلالتها على الإلصاق يُعطي دلالة على تمكن النور وثباته معهم فالنور متمكن منهم وليس عارضًا يزول، وهذا يبعث الطمأنينة والأمان في نفوس المؤمنين، فبينما يتخبط المنافقون في طلب النور ويطلبون من المؤمنين أن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم، يُرزق المؤمنون هذا النور الذي يسعى بين يديهم ويلتصق بهم ويسير معهم حيثما ساروا، فيشعرون بالراحة والأمان من أهوال ذلك اليوم، وهنا فرق دقيق أخر ومهم من الناحية اللغوية والبلاغية بين استخدام (الباء) في (بِأَيْمَانِهِمْ) وهي تدل على معناها الأصلي، وبين أن تكون (الباء) بمعنى (عَنْ)، فساعة أفادت (الباء) الالتصاق الشديد حتى جعلت النور متصلاً بهم وملازما لهم وكأنه يخرج من أيمانهم، فإن (عن) أفادت مجرد المجاوزة والمباعدة أي أن النور قد يكون على مقربة منهم أو من جهتهم اليمنى، ولكنه ليس بالضرورة ملاصقًا لهم أو متصلاً بهم اتصالا مباشرا، والسياق والمقام يطلبان الدوام والإلصاق وهذا يتحقق مع الأصلي (للباء) دون غيره من المعاني الأخرى، ومن ثم يبرز بديع الاختيار القرآني لحروف الجر وتوظيف دلالاتها في مكانها توظيفا دقيقا لا يمكن بدونها تحقيق قصدية الخطاب أو مراد النظم.

الخاتمـــــــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتجلى الحقـائق وتنكشـف الأسرار، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله، أما بعد

فبعد تلك الرحلة الماتعة في دروبِ البلاغةِ وهذا التطـواف فـي رياضـها ودروبها، وبعد التأمل في المواضع التي صرح فيها أبو حيان بتناوب (الباء) مـع غيرها من حروف الجر، ومحاولة سَبْر أغوارِ الدلالاتِ الخفيّةِ لهذا الحـرف فـي سياقات تلك المواضع، تُسدَلُ ستائرُ هذا البحثِ لتُفضيَ إلى نتائجَ، وتوصياتٍ قـد تُضيءُ الدربَ للسالكين منها:

١- أوضحت الدراسة أن لكل حرف شخصية معنوية متفردة لا يحسـن أن تذوب في غيرها بمجرد القول بالتناوب، فحرف (الباء) بما يحتضنه في جـوهره من معنى الإلصاق، هذا المعنى الذي يبقى أوفى للسياق وأكثر انسجامًا مع مقاصد النظم، وأغزر في الدلالة، حيث أظهر التحليل البلاغي للشواهد أن الإلصـاقَ هـو الوشيجةُ المتينةُ التي يشدُّ بها حرفُ (الباء) أطرافَ المعاني، وهو خيطٌ سـحريٌّ ينسجُ به البيانُ نسيجَهُ المتماسكَ، حتى في المواطنِ التي توهّمَ فيها البعضُ تبادلَ المواقعِ بين الحروفِ.

٢- كشفت الدراسة أن أبا حيان اعتمد في المواضع التـي صـرح فيهـا بالعدول على الصنعة النحوية التي تجيز القول بالتنـاوب، دون الوقـوف علـى الدلالات البلاغية التي تعلل وترجح صحة العدول من المعنى الأصلي إلـى معنـى التناوب.

٣- كان للسياق عند أبي حيان دور في المنهج الذي عـالج بـه معـاني (الباء) إلا أنه لم يصرح بهذا الدور، واكتفى بقبـول التنـاوب تـارة، ورفضـه والتصريح بالدلالة الأصلية تارة دون تعليل.

٤- حين تتكاثر الأوجه التفسيرية وتتعدد، فإن المنهج البلاغـي يـنهض ليكون الفيصل، مرجحًا الرأي الذي يلامس مقتضيات السياق، ويفك شفرة دقـائق المعنى، فهو الميزان الذي تُقاس عليه صحة الأقوال، وهو الأقـدر علـى كشـف

المعاني الدقيقة والمكنونة التي قد تظل حبيسة الجانب النحوي وحده، فالبلاغة تُقدم براهين قاطعة على الرأي الراجح، وتُشير إلى المعنى الأدق والأصوب الذي ينسجم مع السياق القرآني، ويتناغم مع الإعجاز البلاغي الذي يكسو كلام الله.

٥- أكد البحث على أن حروف الجر ليست مجرد أدوات ربط شكلية، بل تعد مفاتيح دلالية وبلاغية تفتح آفاقًا واسعة لفهم النصوص، خاصة النصوص القرآنية ذات القيمة الدلالية العالية.

٦- المعنى الأصيل للحرف هو الذي يمنحه دقة في التعبير، ويُحدد وظيفته الحقيقية في الربط بين الألفاظ أو الدلالة على العلاقات بينها، وإذا أهملنا هذا الأصل، فسيصبح الحرف مجرد أداة فارغة لا تُضيف إلى المعنى شيئًا محددًا، أو قد تُسبب التباسًا.

٧- أكد البحث على أن السياق القرآني له دور حاسم في تقرير معنى حرف الجر، إذ يضبط ويفسر أبعاد التناوب أو يرفضها إذا تسببت في تعارض دلالي أو ضعف في المعنى البلاغي.

٨- خلص البحث إلى أن القول بالتناوب في بعض الأحيان قد يؤثر على دقة فهم المعنى والسياق القرآني، وقد يفقد النص بعضًا من خصوصيته الدلالية، بل ويُفْقِده شيئًا من حضوره وثرائه، وقد يُحدِثُ له شروخًا في بناءِ الدلالةِ، ويُفقدُها بعضَ وهجِها، مما قد يؤدي أحيانًا إلى تشتيت الدلالة أو إضعافها.

التوصيات:

- إجراء دراسات تكمل ما بدأته تلك الدراسة وتستوعب باقي حروف الجر للمضي قدمًا في استكشافِ بقيةِ المواطنِ التي قيل فيها بالتناوبِ، ولنضعها تحتَ مجهرِ التحليلِ البلاغيِّ للوصول إلى حكم يرتكز على دلالات واضحة .

- التوسع في إجراء البحوث البلاغية البينية التي من شأنها أن تصحح وتقوم الآراء، وتضع معايير واضحة لقبول الآراء أو رفضها.

المصادر والمراجع

- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ): تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ): دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أسباب نزول القرآن، للواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ) ، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح– الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي،(المتوفى: ٤٦٣ هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، (المتوفى: ٧٤٥هـ)، د. حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا، الطبعة: الأولى.
- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين المرادي المصري (المتوفى: ٧٤٩هـ): تحقيق د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١٣٧،

- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، المؤلف: أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (المتوفى: ١٢٠٦هـ) دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ -١٩٩٧م
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر، الجرجاني (لمتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر: دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ): تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣.
- ضرائر الشِّعْر، لابن عصفور (المتوفى: ٦٦٩هـ): تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠م.
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لجمال الدين أبو الفرج الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م
- الفاصلة القرآنية بين إعجاز النظم وادعاء الرعاية تفسير التحرير والتنوير نموذجا، محمد شاكر صهوان، مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، المجلد ٣٤، العدد ٣، أكتوبر ٢٠٢١م .
- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، الطبعة الأولى الرياض: مكتبة العبيكان ،١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- الكتاب، لسيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

- الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- لسان العرب لابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ) دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم محمد النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، تحقيق، د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.
- مفاتيح الغيب فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢ه) تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، الطبعة: الأولى– ١٤١٢ه.
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د/ محمد أمين الخضري، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	المُلخص .	١٠٤٥
٢-	Abstract	١٠٤٧
٣-	المقدمة	١٠٤٩
٤-	التمهيد	١٠٥٧
٥-	نيابة (الباء) عن (في) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١٠٦٣
٦-	نيابة (الباء) عن (من) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١١٠٢
٧-	نيابة (الباء) عن (إلى) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١١٠٨
٨-	نيابة (الباء) عن (على) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١١١١
٩-	نيابة (الباء) عن (اللام) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١١١٧
١٠-	نيابة (الباء) عن (عن) بين الصنعة النحوية والدلالات البلاغية.	١١١٩
١١-	الخاتمة	١١٢٩
١٢-	المصادر والمراجع	١١٣١
١٣-	فِهْرِس الموضوعات	١١٣٤

تم بحمد الله